رواية

تكوشين

جوان زكي سلو

رواية

تكوشين

جوان زكي سلو

تدقيق: جوان سلو

غلاف: رشا أحمد

رقم الإيداع: 2019/13673

الترقيم الدولي: 978/977_835_118_ 4

زحمة كتاب / اسكرايب للنشر والتوزيع

Email : Scribe20199@gmail.com

الهاتف: 01099727510

جميع الحقوق محفوظة

الفصل الأول

صعدتْ درجَ سطح ذلك المنزل، بتؤدة، حاملة بيمناها سلاحها الكلاشنكوف، بينما يدها اليسرى، ما تزال حرة، تتمسّكُ أحيانا بحافة الدرج المُتهدّم، في بعض أطرافه، لتتخطّى تلك الدرجات، بخطوات مزدوجة، حتى وصلت الى سطح الدار، سارتْ باتجاه الحافة، وقد تحوّلتْ إلى محرسٍ لكتيبتها، التي استقرّتْ قبل يومين في هذه النقطة، على أطراف مدينة منبج، بعد أن حرّرها مقاتلو (وحدات حماية الشعب ypg والمرأة ypj الكردية السورية) من عناصر تنظيم داعش.

كانت الشمس حينها في الغسق، تذوب خصلات شعرها الأشقر، المجدول مع نهايات ذلك الغسق، وتراقب بعينيها العسليتين، من بعيد، تخومَ المدينة، مدينة ما تزال تقاوم بصمت، سرطانا مميتا، محاولا بكل الطرق، بسطَ سيطرة خلاياه الجرثومية، على أرجاء المدينة، فيختلط أزيز الرصاص، مع أصوات الطبيعة الحية، لاحظتْ غروب الشمس، مخلفة وراءها ذكريات، بطعم الحنين والغربة، فاليوم، هو عيد ميلادها الثامن عشر ولا تريد أنْ تخبر أحدا من رفاقها، في الكتيبة، خجلا واستحياء، فكيف لها أن تتقبّل فكرة الاحتفال بعيد ميلادها، وهم يعيشون أصعب لحظات حياتهم، بكل شغف، متأملين بزوغ الشمس في اليوم التالي، وهم أحياء؟

ما تزال تتذكّرَ حلمها، حين زارها أول مرة، قبل أكثر من أربعة أعوام، ومن يومها، لا يفتأ هذا الحلم، يعنّ دوما على ذاكرتها، في مضض، لتنتابها تلك الرجفة الرعناء؛ حتى تؤرق مضجعها، ويحرمها من الاسترخاء، وتعود بها الذكريات لأيام الطفولة.

فما الذي جرى؟ ما الذي جعلها تسـيرُ في نفق مُظلم، مُعتم؟ حين رأتْ نفسـها، تتحسّـسُ جدران ذلك الدهليز، براحتي يديها، رأتهُ يضـيقُ كلما تتقدّمُ أكثر، ليسـطعُ في نهايته، نورٌ خافتٌ، خجول، بعيدٌ جداً، حاولتْ أن تُسرـعَ في المسير، تخطو أولى خطواتها، بلا هدىً، شعرتْ بقدميها تغوصان في وحلٍ لزج، وبصعوبة بالغة، أخرجتْ قدميها من ذاك الوحل، واستمرتْ في المسير، أحسّتْ أنّ الظلام باتَ أكثر عتمةً، والنفق أكثر ضـيقاً، وذلك الضـوء الخجلان، في نهاية المتاهة المظلمة، يرحلُ عنها، أكثر وأكثر، وكأنّه يتحاشى السطوع مرة أخرى، هذا ما جعلها، تلهثُ بشـدّة، فقد أضـحى ذاك المكان الغريب، وحشـاً، يطبق على صدرها، ويمنعها من التنفّس.

سمعتْ صدى اسمها يأتي من بعيد: جميلة... جميلة، أرادتْ أنْ تصرخَ؟ فما اسـتطاع صـوتها أنْ يخرجَ من حنجرتها، وسـادَ الصـمتُ القاتل، جرتْ وسـقطتْ أرضـا، كان الصـوت قريبا جدا منها، أرادتْ أنْ تلتقطهُ بيدها، وكأنّ الصـوتَ كائنٌ ملموسٌ يحاول إخراجها من السـواد الحالك لذلك المسـتنقع الكئيب، وبصعوبة بالغة، وقفتْ على قدميها، لترفع رأسها وتفتح عينيها، فتجدَ نفسها في فراشها، كان ذلك صوت والدتها، وهي تناديها كي تستيقظ؛ وتتحضّر للذهاب للمدرسـة، لقد كان حلما غريبا، بقيتْ في فراشـها، ونظرَها متعلّق- بتأمّل عميق- في سـقف غرفتها، تناجي نفسـها بصـمت: ما هذا النفق، الذي كنتُ أسير فيها وحدي؟ وما ذاك الضوء الذي كان يشع في نهايته؟ وجعلني أتوهُ فيه؟ أسئلة كثيرة، حامتْ في فلكِ جميلةَ، في ذلك اليوم، الذي لم تستطع نسيانه.

جميلة... تلك الفتاة الصـغيرة ذات الأربعة عشر- ربيعا، لم ترهقْ نفسـها في التفكير بتفسير حلمها ذاك، أزاحتْ اللحاف عن جسدها، ووقفتْ برهةً أمام

مرآتها، الملتصـــقة بباب خزانتها، كانت تنظرَ لنفســـها في المرآة، تتأمّلُ جمالها، وأنوثتها البادية للعيان، فما بين تقاطيعها الدقيقة، وملامحها الرقيقة، تشـــعّ عيناها العســـلـيّتان، من بين الأهداب الطويلة، وبشرـــتها البيضـــاء النقيّة، وابتســامتها المشرـقة، تزيدها إشراقة ورِقّة، ويضيـء من شـعرها الذهبي سـناء و ضياء، ولم يكن الضوء الذي يسطعُ من وجهها، ليزيد عن الضوء، الذي يغمر قلبها، وما كان نقاء بشرتها، وصفاء عينيها، بأكثرَ من نقاء، وصفاء روحها، تمشّطُ شـعرَها الأشـقر، الأشـعث قليلا، وتربطُ خصـلاته بحلقة مطاطية، لتُديم النظر بإمعان مرة أخيرة، في وجهها الصـــغير، وجســـمها النحيل، وتخرجَ مرتديةً زيّ المدرسة، دخلتْ المطبخَ، لتساعدَ والدتها في إعداد الطعام، لها ولإخوتها الصغار، استعدادا للتوجه إلى المدرسة، بينما يقفُ الأبُ في فناء المنزل، يحمل بيده بعض حبوب القمح، ليطعمَ دجاجاته الحمراء، في حبور ونشـــوة، وينتظر إفطاره الصباحي، كي يذهب بعدها إلى عمله.

ســألتْ والدتها، في ذلك اليوم، حين كانت تقف أمامها، ممســكة إبريق الشاي، وتضع فيه بعضاً من أوراقها السوداء، وتملؤه بالماء:

- متى ستنتهي أحزاننا يا أمي؟ لقد رأيتُ حلماً أعجزُ عن تفسيره.

هي لم تكن تدري أن للزمن تصـاريف أخرى للأقدار، وأننا لسـنا سـوى بيادق، لا ولن نعرف قدرنا، إلا بعد أن نموت، أو أن تنتهي أهدافنا، حينها لن يبقى لنا ســـوى الذكريات، ينشـــدها أو يرويها أحباءنا، منها ما كتبناها في قصاصات، ضاعتْ في مهب الريح، أو حفرناها على أجسادنا، كوشوم ستبقى معنا، وســتُدفن معنا أيضـا، وذلك الكفن الأبيض، هو صـفحتنا الأخيرة في رواية حياتنا الكئيب.

رمقتها والدتها في حيرة، متفاجئة من هذا السؤال الغريب، الذي يصدر من فتاة، لم تعرفْ في حياتها سوى الفرح، والهناء، فكيف لفتاة، لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها، أنْ تسألَ هذا السؤال الحزين؟ صمتتْ الأمُ قليلا، والتفتتْ إليها، لتضمّها إلى صدرها، وتقول لها:

- ستنتهي الأحزان، عمّا قريب، يا حلوتي، فما زلتِ صغيرة، على أن تفكري بالحزن، وأنْ تقو لي مثل هذا الكلام، عيشي عمرك، واستمتعي بحياتك، واتركي عنك هذه الأوهام، فأنا ووالدك، أدرى بهذه الأمور، فمنَ الظاهر، أنّ متابعة القنوات الإخبارية، وما يرافقها من فيديوهات، وتقارير عن الدمار والحرب، في سوريا، قد أثّرتْ فيك، وجعلكِ تحلمين بهذه الأفكار والهواجس، والآن يا حلوتي، استعجلي، فالكل بانتظارنا.

تتذكّرَ جميلة يومها، حين تأفّفت بشكل طفولي، مبالغ فيه، لتتمتمَ بكلام غير مفهوم، وكأنّها تلومُ نفسها على خطأ، اقترفته، وسؤال، لن تجدَ له الردّ المناسب، فتستسلم لجواب والدتها، وتكمل عملها في المطبخ، بوضع إبريق الشاي على النار، بينما تضعُ الأم، صحون اللبن، الزعتر، الطحينية، والزيتون، على سُفرة ممدّدة على الأرض، بجانب أرغفة الخبز الحارة، فبما أنّها أكبر إخوتها، كان من الضروري، أنْ توقظَهم من النوم، وتلملمَ ثيابَهم، وتجمعَ البطانيات واللحف، وترتّبها، وتعدُّ لهم الطعام، مع والدتها، وتخرجُ ممسكةً بيد إخوتها الصغار، متوجّهين إلى المدرسة، بينما يتوّجه الأب إلى عمله، فهو يعمل موظّفا، في مكتب الجمارك، التابع للإدارة الذاتية، في كانتون الجزيرة (شمال وشرق سوريا) في محافظة الحسكة، وعليه أنْ يسيرَ مسافة جيدة، حتى يصلَ للحافلة، التي ستقلّهُ مع رفاقه إلى مكان عمله.

الطريقُ إلى مدرســـتها ليس ببعيدٍ عن بيتها، فالمدرســـةُ تقعُ في مقدمة الحيّ، ولا يكلّفها الطريق، ســوى مســير عشر دقائق، حتى تصــلَ لبابها، ومن نافذة صــفّها المدرسي، راحتْ تنظرَ إلى أبنية، وشــوارع مدينة (نصــيبين)، توأم مدينة (قامشـــلو)، لتتأمّلها بعينيها، وتُبصرَ تلك الحدود والأســـلاك، الحواجز الإســـمنتية التي تحاول قطعها، لكلِّ أواصر القربى بينهما، نصــيبين التركية، تلك المدينة التي تحدّ قامشــلو من الشــمال، لا تســتأنسُ إلا بحضــور قامشــلو، في أمسياتها وأفراحها وأحزانها، وقامشلو ككلّ أخواتها من مدن شمال شرق سوريا كعامودا وديريك وسري كانيه و دربا سية و كوباني، تعيش المأ ساة نف سها، هي مفصـــولة بحدود وأســـلاك، عن أخواتها في الشـــمال، تذكرّتْ جميلة حلمها، واستذكرتْ ذاك النور الخافت، وذلك النفق المظلم.

قالتْ في سرّها، والملل بادٍ عليها:

- أين سأجدُ هذا الضوء، في مثل هذه النفق، الذي نعيش فيه كل يوم؟ أخرجها صوتُ المعلم من شرودها، لتستقبلَ أولى المعلومات، التي نطقها المعلم في تلك الحصة: إنّ النصرَ في الحياة، يأتي مع الأمل.

تسلّقتْ بعينيها جدار الأمل، وبحثتْ بين شقوقه، عن بصيص رجاء، قدْ تجد فيها العزاء، فربما تلملمُ بقايا أفكارها المُتشـــظيّة، إثر تفجير لقنبلة حزن واكتئاب، ليتردّدُ السؤال في بالها، مرة أخرى، كيف يأتي الأملُ؟ وأصواتُ الرصاص، لا تفارق أيامها؟ الحزن والخوف، يغلّف كل لحظات الحياة، فالبارحة مثلا، فقدَ أحد الجيران ابنهُ، في تفجيرٍ حصـــل قبل مدة، إثرَ الإصـــابة التي تعرّضَ لها، وأودتْ بحياته، واليوم، الحيّ كلّه على موعد، لاســـتقبال جثمانه من المشـــفى، ومن الظاهر للعيان، أنّ خيمة العزاء، ســـتمكثُ طويلا في الحيّ، بالإضـــافة، إلى

وصول أنباء عن استشهاد عدد من الشباب المقاتلين في المعارك، ضد الجماعات المسلحة، الغريبة عن المنطقة، وما تزال تتوالى، على مسامع الجميع في كلّ حين، وأغلبُ الحديث بين الناس، يتمحور حول الغلاء، منها ارتفاع سعر الدولار، الذي رفع سعر المازوت، الكهرباء، نقص الماء، ووقوف الناس في طوابير للحصول على الخبز من الفرن، الهجرة، الرحيل، المظاهرات، كلها مصطلحات باتت تتردد على الألسنة كثيرا، حتى أصبحت هذه المواضيع موضعَ تندّرٍ بين الناس، وباتوا يستهزؤون منها، وغيرها الكثير من الأمور، التي باتت تُؤرق حياة المواطنين الآمنين.

ضحكات زميلاتها في الصفّ، كان الشيء الوحيد، الذي كفلَ بزرع البسمة على شفتيها، وإخراجها من شرودها، حين أخطأتْ إحداهنّ، في قراءة عددٍ من الأبيات الشعرية، واستمرّ يومها المدرسيّ، ككلّ يوم، تتنقّل فيه بين الكتب والدروس، والوظائف المدرسية، حتى انتهى الدوام المدرسي، بصوت رنين جرس الانصراف، ويعلن الجرسُ للجميع، أنّ الغدّ قريب، فلا تفرحوا بانصرافكم اليوم.

خرجت مع عدد من زميلاتها، ممسكةً بيد أختيها الصغيرتين، عائدات للمنزل، مستنفذةً كل طاقتها، وفي طريق العودة، سلكتْ جميلة شارعاً آخر، كي لا تمرّ بجانب خيمة العزاء، الموجودة في الحيّ، وترى النسوة يندبْنَ على ذلك الشاب، متّشحات بالسواد، روحاً وجسداً، وعندما وصلتْ للبيت، وجدتْ والدها ينتظرها بباب المنزل، استشعرتْ في وقفته شيئا، وبأنّ أمراً جللاً قد حدث، أو سيحدث بعد حين، وأنّه قد حضّرَ لها مفاجأة، اقتربتْ منه وحضنتُه، همسَ في أذنها، فاستبشرتْ خيراً من كلامه، ركضتْ باتجاه غرفة الضيوف الكبيرة، التي بُنيتْ حديثا بالإسمنت، مع غرفة للمطبخ، بينما بقيتْ غرفتان،

مبنيتان من الطين واللّبن، مجاورتين لغرفة الضيوف، وتمتدّ أمام الغرف، فسحة كبيرة، مزروعة ببعض الأعشاب، والنباتات والزهور، وفي زاوية من هذه الفسحة الجميلة، بنى الأب قناً لدجاجاته، الحمراء البلدية، تُؤنسه، وتُذكّره بقريته، التي جاء منها قبل خمسة عشر عاما، رمتْ جميلة حقيبتها في غرفتها الصغيرة، وتوجّهتْ إلى غرفة الضيوف، استقبلتها لوحة كوردستان، ملونة باللون الأخضر والأحمر والأصفر، مُعلّقة وسط الحائط، ويجلسُ تحتها (هفال سرحد).

كم تعشقها جميلة، تلك اللحظات، حين تتلاقى الأعين المتعطشة، بالقلوب الملهمة، ألقُ عينيها البارقتين تشيان بفرح عارم، ومفاجئ، ففيها تكون الوجوه، كلوحات تشكيلية، تعبق بألوان الحياة، وحدها الذكريات تحتفل باللقاء، لأنها بذلك تزيح ألم الفقد، بمرهم الحنين، كان هفال سرحد، صديق أبيها، ورفيق دربه، حضنته بشوق كبير، أراحتْ رأسها على كتفه، كعصفور صغير، وراحتْ تسأله دون توقّف، عن حاله، وعن باقي الرفاق، فحكاياته القتالية لا تنتهي، ومغامراته في جبل قنديل، وجبال كوردستان، أكثر بكثير، مما كانت تتصوّر، لقد كانت تستمتعُ كثيرا، بهذه القصص، ففي بداية الأمر، حين تعرّفتْ إليه، كانت تهابه، ببزّته العسكرية وببندقيته الكبيرة، لكنّها حين عرفته، تعلّقتْ به، وأحبّتْ نضاله، فهو كثير الكلام، هو ووالدها، عن الثورة السورية، وعن نضال الرفاق في الجبل، وبلهفة وشغف، تستقبلُ أحاديثه الممتعة، ومنذ ذلك الأيام، سمعتْ بثورة روج آفا لأول مرة.

و كعادتها دائما، حين يحضرَ أحد رفاق أبيها إلى المنزل، أنْ تطلبَ منهم أن يحكوا لها قصةً، أو حدثاً، أو مغامرة، حصل معهم في الجبل، أو في اشتباك بينهم وبين الجيش التركي، هذه المرة، انتظرتْهُ بشوقٍ، أنْ يسردَ لها قصة من قصصه

الممتعة، تثير خيالها، وتجعلها تهيمُ في الجبل معهم، تحملُ معهم السلاح، تسيرُ بين ثنايا الجبل، تتيهُ فوق السحاب، تحلمُ بأنّها مقاتلة، تعقدُ شعرها في ضفيرة صغيرة، تحملُ هموم شعب على كاهلها، و سلاحها هو قلبها، وإرادتها الصلبة، لتحرير وطنها كردســـتان، من المحتلين، كانت تنتظر حضـــور هفال سرحد، كي يطلق العنان لأحلامها، وتنطلق بحرية في هذا العالم، وهكذا كان الضيف الكبير، العزيز، يعرفُ ما كانت تبحث عنه، فيسردُ لها حكاياته المشوقة.

قال لها: إنّه كان مع رفيق له في الجبل، يحملان حقيبة، فيها بعض الأدوية والمؤن، ومهمّتهم هذه المرة، أنْ يقوموا بإخفائها في مكان، أو في نقطة محددة، ومعروفة من قبل جميع الرفاق، والغاية منها، أن تكون عوناً لأيّ رفيق، قد يمرّ من تلك النقطة يوما ما، أو إذا كان الرفاق في مهمة قتالية، وقد تعرّضـوا إلى كمين للقوات التركية، وتحصّـنوا بين الكهوف، فسـوف يسـتطيعون إخراج هذه الحقيبة، فتســـعفهم، حتى يأتي الدعم لهم، بمعنى آخر أن تكون هذه الحقيبة، خلاصهم الوحيد، في أشدّ لحظات حياتهم القتالية، صعوبة، يومها قام هفال سرحد، وبعد جهدٍ كبير، وبمســـاعدة من رفيقه، أن يزيحا الثلج من على الصخور، بأيديهما، ويحفران الأرض قليلا، حتى يصلا لعمقٍ تحمي الحقيبة من التلف، كان البرد شـــديدا، والعاصـــفة الثلجية في بدايتها، والرياح الباردة، تعصفُ بهم من كل صوب، محوّلةً أناملهم إلى قطع خشبية، لا روح فيها، حتى تجمّدتْ الدماء في أصابعهم، ولكنّ هذا البرد، لم يثنيهما، عن مواصلة حفرهما، حينها، شـــعرا بوجود شـــخص، يحومُ حولهما، ويراقبهما، ويحاول أن يتعرّف عليهما، خمّنا أنّ هذا الشـــخص، قد يكون من المتعاونين مع الجيش التركي، وبسرعة حملا السلاح، وبدأا بملاحقته في الوادي، عساهما يجدانه ويقتلانه، كي لا يخبر عناصر الدرك بمكانهما، أو بمكان الحقيبة، وحتى لا تتحوّل هذه

الحقيبة، إلى كمين، لإلقاء القبض على باقي الرفاق، الذين قد يمرون من تلك النقطة، وهكذا، ستخسرَ القضية الكردستانية كوادرَ قتالية، شابة وقوية، لحقا به بين الصخور، وفتشّا في الكهوف القريبة منهما، ولكنّهما لم يعثرا عليه، وباءت محاولتهما بالفشل، عادا إلى مكان الحقيبة، وقاما بإخراجها من مكانها، والبحث عن مكان آخر لإخفائها، وإعلام الرفاق عن المكان الجديد، وبعد أن قاما بتغيير مكان الحقيبة، كانت الشـــمس قد غابتْ، والثلج باتَ يهطل أكثر مما قبل، وازدادَ البرد عليهما، ولكنّهما لم يستطيعا أن يعودا إلى المعسكر في الجبل، حتى يتأكدا من أن هذا الشـــخص الذي رآهما، قد تعرّف عليهما، ولن يخبرَ أحداً عنهما، توجّها إلى القرية، التي تقع في أسفل الوادي، ليسيرا في جنح الظلام، بين البيوت، يبحثان عن أي شيء، يدلّهما على بيت هذا الرجل، حاولا أن يستقصيا عن الأمر، ناما تلك الليلة في قلق شـــديد، ليس خوفا على أنفســـهم، بل كان خوفهم على باقي رفاق الجبل، فليس للكردي إلا الجبل، لأنّ لا حامِ للكردي، غيره.

في الصباح، خرجا من القرية، بعد أن تأكدا، من أن هذا الشخص لم يخبر أحدا بما رآه، وعادا لمعسكرهم في الجبل.

تركتْ قصـة هفال سرحد، في نفسـها، أثراً كبيرا، جعلتها تحدّث نفسـها، وهي في فراشـها، تتخيّلُ ذلك الثلج، الذي يهطل عليهما، كم كان قاسـيا وباردا ذلك الثلج، فقد كانت ليلة صـعبة جدا، تلك التي عاشـها المقاتلون بين الجبال الصماء، في كهوف عميقة، أدركتْ حينها، أنّ إيثار سلامة رفاق السلاح، تأتي قبل السلامة الشخصية، وأنّ جبال كردستان، قد خلقتْ مقاتلين، لا يهابون الموت، وحوّلتهم إلى حالة إنسانية، نادرة الوجود، إنهم كموسيقا، تجوب العالم بألحانها،

مع الريح والمطر، وشـــمســـهم لا تشرــق، إلا على أرض، ارتوتْ من أمطارهم، حلمتْ أنّها كانتْ معهم، تحفر الأرض، وتحمل الحقيبة على ظهرها، وتركض معهم بين الصـخور، بقي حلمها يكبر معها لأيام، ينمو في داخلها، كنبتة ربيعية، تنتظر أمطار الربيع، لتزهر، كانت جميلة تشـــعر بأنها أرض بور، جافة بفعل تأخر المطر، ولن تنمو زهورها، إلا إذا ســـمحتْ لأمطار جبل قنديل، أن يهطلَ عليها، فينتشر عبقها مع نسمات جبال كردستان إلى كل مكان، بادرتْ بالسؤال لأبيها، ذات يوم، قائلة:

- متى ســتســـمح لي، أن أذهب للجبل؟ وأحملَ الســلاح؟ اســمح لي أن أشـاركك الحلم، حلم الثورة ؟ حلم الجبل ؟ الحرية؟ نظرَ إليها متفاجئاً من هذا السؤال الصباحي، في إحدى أيام عطلها الأسبوعية، وقال لها مبتسما:

- ما زلتِ صـــغيرة، يا ابنتي الحلوة، تمتمتْ جميلة في سرّها، بينما كانت تسـير لتدخلَ غرفتها، وتنظر لنفســها أمام المرآة، وتقول: يا إلهي، كم أكره هذه الجملة (ما زلتِ صـغيرة، ما زلتِ صـغيرة)، أخرجتْ من دفترها صـورة لمقاتلة كردية، في جبالِ كردســـتان، تحملُ ســـلاحا، وترتدي زيّاً عســـكريا، وتقفُ على صـــخرة عالية، تُكمل جميلة نجواها، فحديثها مع الصـــورة بات أكثر لوعة: إلى متى ســـينظر والدي إليّ، على أنّني ما زلتُ طفلة؟ حتى أنني أطول منك، وأستطيع حمل سلاحك؟ أبي لا يعرف أنّني أكبر من عمري، ويظنّ أنني ما زلت ألعب بالألعاب، وأنام وفي حضني عروسة قماشية، اشتراها لي قبل مدة، حتى الهاتف الجوال، الذي ابتاعه لي، لم أجد المتعة فيه، كباقي الفتيات من صديقاتي، مليئة بأغاني الجبل والرفاق، ســـألتحقُ بك ذات يوم، وأحمل عنكِ ســـلاحك،

وأرتدي مثلك، وأقف فوق تلك الصــخرة، حينها لن يجدني والدي صــغيرة بعد ذلك.

خزانتها الخشــبية، كانت من درفتين، الدرفة الأولى لها، والثانية لأختيها الصغيرتين، تخبئ فيها ثوباً عسكرياً لمقاتلة، كانت قد أهدتْهُ إيّاها، في آخر زيارة لها، إلى منزلهم، حين رأتها تلك المقاتلة، تنظر لثوبها العسكري الفضفاض، بأعين متشــوقة، لقد أُعجبت جميلة بثوبها، لدرجة أنها طلبت منها، أن تجرّبه على جسدها النحيل، وكم كانت سعيدة، عندما أهدتها هذه المقاتلة زيّها ذاك، لأنها كانت تملك غيره، لذلك قامت بإخفائه عن والدها ووالدتها، حتى يحين الوقت المناســب كي تلبســه، وتريه لهما، يوما ما، وعلى الوجه الداخلي لدرفة خزانتها، كانت جميلة قد ألصــقتْ عددا من صــور المقاتلين والمقاتلات، مع أســلحتهم، بالإضافة لجغرافية كردستان، مرسومة بقلم الرصاص، على ورقة بيضاء، كانت جميلة قد رســمتهُ، وألصــقتهُ بجانب صــور المقاتلين، لتكتمل معها روزنامتها الحبيبة، تتذّكرَ جميلة كلما تلمسُ أصابعها تلك الصور، أوّل يومٍ سمعت باسم كوردســتان، كان ذلك عندما كانت في الســابعة من عمرها، وقتذاك، كانت قد ذهبتْ مع والدها إلى عرض مسرحي، ووالدها من المشاركين فيه، وبعد انتهاء العرض المسرحي، صفّق الجميع لهم، أسعدَها كثيرا ذلك العرض والتصفيق المرافق للمسرحية، في ذلك اليوم، حينها رأتْ الحضور ينادي باسم كوردستان، فبدأتْ تشاركهم التصفيق بفخر واعتزاز، وابتسامتها لا تفارق شفتيها، وفي طريق العودة، اســتســلمتْ للنوم على قدم والدها، منهكة من التعب، وكانت كل الأعين في تلك الحافلة، تنظر إليها في حبّ، وكأنها عصــفورة، تغرّد فرحاً، في بســتان والدها الحنون، فقد كانت وما زالت ابنته البكر، القريبة من قلبه، وجميلة العينين والملامح، لذلك أســماها جميلة، حتى أنها ســألتْهُ عن اســمها،

ولماذا اختار لها هذا الاســـم؟ قال لها أنه حين حملها أول مرة، بعد أن ولدتها أمها، رأى عينيّها الجميلتين، ودونَ أي تفكير، اسماها جميلة.

وفي اليوم التالي من العرض المسرـــحي، الذي شـــارك فيه الأب، وافقَ وبإصرار طفولي شديد منها، أن تنضمّ إلى جوقة الغناء للصغار، لقد استمتعتْ كثيرا بالغناء بلغتها الكردية، المحرومة من تعليمها ونطقها في المدرســة، صــوتها الطفولي، ونطقها الســليم، مع اللحن المناســب، ترك في قلوب من كان يتابعها، ويسمعها، حماسةً شديدة، وهكذا، أصبحتْ تشاركُ في الغناء بالكردية في كل حفلة أو مناسبة تخصّ الوطن، ومن يومها أصبحتْ أيامها مليئة بالنشاط.

أغلقتْ جميلة خزانة ملابسها، ومعها أغلقتْ على ذكرياتها الجميلة من أيام الطفولة، وخرجتْ لتستقبلَ صديقتها، حين سمعتها تنادي عليها، جلستا معا في غرفتها، تراجعان دروسهما، ووظائفهما المدرسية، بعدها بقيت زميلتها عندها، تناولتا معا طعام الغذاء، الذي أعدتهُ والدتها لهما، وقبل أن ترحل صاحبتها إلى بيتها، وقتها كانت ظلال الأشجار طويلة، والشمس تستعد أن تتوارى خلف جبال طوروس غربا، أغلقتْ جميلة باب غرفتها، وأخرجتْ ثوب تلك المقاتلة، لتريها لصديقتها، وأمام دهشة رفيقتها لما شاهدتهُ، ارتدتْ ثوبها العسكري، متفاخرةً بردائها الجديد، ولفّتْ حول عنقها وشاحاً، كان لوالدتها، وبدأتْ تحكي لها عن حلمها، وأنّها ستحقق هدفها، عندما تلتحق بصفوف المقاتلين (الكريلا) في الجبل، كمقاتلة لا تهاب الموت، وأنّها ستحمل السلاح، و...، لم تُكملْ جميلةُ حديثها عن حلمها، حتى سمعتا صوت جارتهم، تزغرد، خرجتا على إثرها إلى الشارع، هلعتين، متفاجئتين، لتجدا نسوة الحيّ حول جارتهنَّ ذات الوشاح الربيعي، وهنّ يزغردنَ معاً، ويهتفنَ (شهيد نامرن)-

الشـهيد لا يموت- اسـتفسرـتْ ممنْ كان حاضراً، في ذلك المشـهد، عن سـبب الزغاريد، فعرفتْ أنّ ابن جارتهم، قد أُسـتشـهد في معركة تحرير ريف سري كانيه (رأس العين)، وهي مدينة في الشـمال السـوري، من هجوم لعناصر متطرفة، كانت دموع أهل الحيّ، صغارها وكبارها، رجالها ونساءها، تنهمر مع دموع أم الشهيد، ومعهم علا صوتها بـ (شهيد نامرن)، وترفع أصبعيها، السبابة والوسطى، كإشارة نصر لروح ولدها الشهيد، ذلك الشاب المتزوج حديثا، وابنه الرضـيع يعلو أكتاف النسـوة، في موجة عارمة من المشـاعر الهيّاجة، الممزوجة بالحزن، في تلك الليلة، لم ينم أحد في الحيّ، لقد تمّ نصـب خيمة عزاء، لروح هذا الشـاب، وعُلّقتْ في مقدمة الخيمة صـورة لبطل الحي، ومكلّلة بالورود والأعلام.

في صـباح اليوم التالي، لم تذهب جميلة للمدرسـة، ككل نهار، وبقيتْ في بيتها، لتذهب مع أمها وأبيها، إلى خيمة العزاء، تواسي معهم، هذه الأم وزوجته التي أنجبت طفلا يشـبـهه، في حين كانت جميلة، تسـتمعُ لكلمات التأبين، التي ألقيتْ على مسـامع الجميع في الخيمة، تُلهب حماسـة من كان حاضرا، وتثير في نفوسـهم الثورة، ثورة لم يُدفع ثمنها سـوى بالدماء، تجدُ نفسـها تشـاركهم هذه الروح الجماعية، فترفع صوتها عاليا، ناظرةً لصورة هذا الشهيد، وتتأمل وسامته وقسـمات وجهه، فكيف لرجل بكل هذه الوسـامة، أن يواجه الموت بلا خوف؟ ما الذي جعله يشـارك في معركة، ويترك خلفه عائلة ووظيفة؟ فهل يسـتحق الوطن كل هذه التضحية، وبكل شيء؟ حتى يترك حياته خلفه في سبيل وطنه؟ عادتْ لتندمج مع الجميع في التصـفيق، لرجل كان يُلقي خطابا آخر، يتحدّثُ عن مزايا هذا الشهيد.

مرّتْ بجانبها عدد من الفتيات، بزيّهنّ العسكري، يقدّمنَ واجب العزاء لروح الشهيد، تقدّمتْ إحداهنّ من جميلة، التي كانت تعرفها منذ زمن، وأخبرتها أنها ستمكث في بيت والدها لهذه الليلة، فقد اشتاقت لها، سعدتْ جميلة بهذا الخبر ، وأسرعتْ تُعلمُ والدتها بحضور هذه المقاتلة إلى منزلهم، في المساء، استقبلتْ العائلة هذه الشابة، برحابة صدر، وبعد تناول العشاء، جلستْ جميلة بجانبها، والسعادة تغمر قلبها الصغير، مستسلمة لحديث هذه الرفيقة، بشغف وشوق شديد، مستمتعة بحكاياتها ونشاطاتها، حين كانت جميلة، تسألها عن بداية عشقها لجبال كردستان، وكلما كانت تلك المقاتلة، تتحدّثُ عن أمر ما، يتعلق بالمعركة، وحمل السلاح، وغيرها الكثير من الأمور، كانت جميلة تشعر، بأنها تطير في سماء هذا العالم، المليء ببطلات يحلمنَ بالوطن، ويتنقلنَ بين الجبال، ويجدلنَ شعورهنّ مع خيوط الشمس الذهبية، ليسرنَ نحو الحرية، بقيتْ جميلةُ تلك الليلة، تفكّرُ بما سمعته، منها بكل شغف، فثقة هذه الفتاة بنفسها، جعلتها قريبة منها، وعزمها على مواصلة التدريب، والنضال، قد رفع من معنوياتها، أعجبتها ثقافتها، تراثها، واحترامها لوطنها، الذي كانت تحمله في قلبها وفكرها، لقد تعلّمتْ منها، إنّ الحياة ليست بهذه البشاعة، ما دام فيها نساء بهذه الشجاعة.

حلمتْ جميلة تلك الليلة، بأنّها ما زالت تسير في ذلك النفق، ولكنّ تلك النقطة المضيئة، أصبحت أكبر مما قبل، وباتتْ تشعّ أكثر، حاولتْ أن تُسرع، وتركض أيضا، لتصلَ إلى ذلك النور، ولكنها سقطتْ مرة أخرى، وتسمع صدى اسمها، يناديها من بعيد، مدتْ يدها، لتلامس شعاعا قد انبعثَ من ذلك المكان، ولأول مرة، رأتْ أصابعها، في هذا الظلام الدامس، يتخلّلها ذلك الشعاع، تلمّستْ الضوء، حاولتْ ضمّه بيدها، لكنها استيقظتْ لحظتها، وباءت محولتها بالفشل.

أيام وليال متتالية، مرّتْ على جميلة في ملل وترقب، لقدر مجهول المعالم، وأمور تجري أمام ناظريها، جعلتها تعيد ترتيب أولوياتها بحسب الأحداث اليومية التي تجري أمامها، رأتْ فيها والدها، يخرج مساء كل يوم، مع عدد من رجال وشباب الحيّ، يحمل بعضهم الأسلحة الفردية، وآخرون يحملون العصي، وذلك لحماية الحي، الذي يعيشون فيه، بعد أن تكررتْ حالات السرقة، في الأحياء المجاورة، منعاً من تسلّل أفراد من العصابات المجرمة، حتى لا تعيث في الحي خرابا، إثر تفجير قد يقومون به، كل تلك الأفكار، كانت تجول في ذاكرة جميلة، فتخبر والدها بهواجسها، طالبته بأخذ الحيطة والحذر، كلما يخرج من المنزل، يومها طلبتْ منه، أن ترافقه في مناوبة ليلية، ملقاة على كاهله، فرفضَ والدها اقتراحها، معتذراً لها، بحجة أنها ستعاني الإرهاق والملل، في ليلة طويلة باردة، وأنها لن تجد أحداً، من رفيقاتها فتُؤنسها، دخلتْ غرفتها مسرعةً، وبعد دقائق، خرجتْ، وقد ارتدتْ ثوب تلك المقاتلة الشابة، التي أهدته إياها ذات لقاء، وقد جدلتْ شعرها في ضفيرة صغيرة، وابتسامتها الرقيقة الطفولية، تعلو وجهها البريء، تفاجأ الجميع بها، فسطعتْ أسنانهم البيضاء فرحاً، وعلتْ ضحكاتهم، وصفّقتْ أيديهم، لهذا العرض المسرحي، لقد كان الثوب كبيراً، وفضفاضاً عليها، وحول خصرها النحيل، راح وشاح ملون، يلفّها بعدة لفات، ومعقودة بأكثر من مرة، تقدّمتْ جميلة من والدها، تنتظر موافقته، جلستْ بجانبه، بعد أن هدأتْ موجة الضحك، ووضعتْ يدها في يده، تدنو منه بحنوّ، وقبّلتْ يده، فقد تصبح قبلتها في هذه اللحظة، ذات تأثير في موافقته لها، وهي متأكدة من ذلك، لأنّها وضعتهُ هذه المرة تحت الأمر الواقع، ومرة أخرى بينما كانت الضحكات، ما تزال تسري على وجوه الحاضرين، رفضَ والدها اقتراحها هذا، متحجّجاً بأنها ما تزال صغيرة، وأنّ الحياة ستمنحها الفرصة المناسبة، كي

تحقق حلمها، وعليها أن تصبر، حتى يحين وقت تلك الفرصة، توجّهتْ جميلة نحو غرفتها هذه المرة وبكتْ، لتجري بضع قطرات على وجنتيها، لشعورها بالخجل، والعجز أمام واقعها، الذي رسمته وفقَ مخيلتها الطفولية.

طرقتْ صديقتها باب منزلها صباحا، تستعجلها الذهاب إلى المدرسة، فهذه هي المرة الأولى التي تتأخر فيها، عادةً كانت جميلة، هي من تذهب لبيت صديقتها لتخرجا معاً، وحين سألتها صديقتها عن سبب التأخير المفاجئ الذي حصل، أجابتها أنها بقيتْ ساهرة لوقتٍ متأخر في الليل، منتظرة والدها حتى يعود من مناوبته في حراسة الحي مع مجموعة من شبابها، وأرادتْ بذلك أن تتعلّم كيف تكون مناوبات الحراسة، نظرتْ صديقتها إليها بارتياب، ومشيتا حتى دلفتا غرفة صفيهما المدرسي، دون أن تنبسَ بكلمة أخرى، وقتها حضر معلم اللغة العربية، في الحصة الأولى، وكتبَ على لوح السبورة، عنوان درسهم، ألا وهو موضوع إنشائي، طالباً إياهنّ أن تكتب كل طالبة موضوعا إنشائيا، عن حلمهنّ في المستقبل، مبيّنات في مواضيعهنّ سبب اختيار هذا الحلم، استمعتْ جميلةُ لمقترحات زميلاتها في الصف، فمهنّ من أردنَ أن يصبحنَ طبيبات، أو مدرّسات أو مهندسات، أو عاملات خياطة أو كاتبات، مذيعات أو حتى ممثلات، ومنهنّ من لم تحلمنَ أبداً بشيء، بينما وقفتْ جميلة لحظاتٍ مع ذاتها، وتستمعُ وقتها لنداء يأتي من بعيد، وكأنّ ألف رجلٍ وامرأة يهمسون معاً في أذنها مرة واحدة، ويشجّعونها لتقول ما يجول في خاطرها، ورفعتْ صوتها عالياً: أريد أن أكون في المستقبل مقاتلة.

شعرتْ جميلة بالفخر حينها، عندما رأتْ كل الأعين مصوّبةٌ نحوها فجأة، ترمقها تلك الأعين ببلاهة وغيظ، تتهامسُ صديقاتها عنها، وكأنّها من عالم

آخر، كرّرتْ جملتها وبصوت أعلى: نعم مقاتلة، سأحمل السلاح يوما وأدافع عنكنّ، ربتَ المعلم على كتفها، وطلب منها أن تكتب ما تحلم به، في موضوع جميل، تعجّبتْ جميلة بداية من جرأتها وشجاعتها، كيف أنّها وقفتْ أمام الجميع، تخبرهم بما تريده في المستقبل، فهل حماستها الزائدة قد دفعتها لتقول هذا الكلام أمامهنّ؟ جلستْ في مقعدها بفخرٍ، رفعتْ رأسها باعتزاز مبالغ فيه، وكأنّها ربحتْ الجائزة الكبرى، وفي طريق العودة، راحتْ تغني كما لو أنها في جوقة غنائية، وتجمع الكلمات في جمل لتكتبها في موضوعها، عن هذه الفكرة، حينها تسمّرتْ في مكانها، لاح في بالها أمرَ جديد، قررّتْ لحظتها أنها ستخبرَ والديها، بما يجول في فكرها هذا، وستقنعهما بانضمامها لوحدات حماية المرأة (YPJ)، وسترتدي مثلهنّ زياً عسكريا، وستحملُ سلاحا، وستقف لتصوّب بندقيتها، نحو من يجرؤ على اقتحام مدينتها الحبيبة، بدأتْ جميلة تستذكرَ ما كانت تسمعه من زوّار والدها، من حكايات الحرب والجبل، وباتتْ تغوصُ في بحر أحلامها، التي سيطرتْ على كل تفكيرها، وخيالها بات ينسج واقعا، ستعيشه يوما ما، فجميلة ليست كباقي البنات الأخريات، اللواتي يحلمنَ بفارس، يأتيهنّ على حصان أبيض، ويطلبهنَّ للزواج، وهنّ يلبسنَ ثوب الزفاف الأبيض، ويضعنَ إكليلا على شعورهنّ، كان حلمها أكبر من أن يحتويه صدرها وقلبها الصغير، انتظرتْ بشغفِ المساء، عندما يأتي والدها من عمله، لتناقش معه موضوعها الشائك، الذي ملأ عليها كل حياتها، انتظرتْ في غرفتها تنظرَ لنفسها في المرآة، وجدَتْ وجهاً لا يشبهها، لامسته بأناملها، غير مصدقة، ما آلَ لها شكلها الجديد، عندما قررتْ أن تكون مقاتلة، ففي الصباح كان وجهها طفوليا، والآن تغيّرتْ تقاسيمه، والجديّة باديةٌ أكثر على وجنتيها، وتحت عينيها، لقد كبرتْ جميلة في ساعاتِ عدةَ سنوات، وأصبح لها كيان آخر، تفتخر به أمام

والديها، ارتدتْ ثوبها العســـكري مرة أخرى، وانتظرتْ والدها على أحرّ من الجمر، فربما يكون هدفها قد نضـــج في قلبها، وصـــار لزاماً عليها قطفه، لقدْ أحسّـــتْ بنيران ثائرة، تفور من قلبها كبركان، أو كطوفان لنهرٍ يســـيلُ من جبلٍ عالٍ بين الصخور، يجرفُ معها كل أحاسيسها، ويجعلها تشعر بحيوية ونشاط.

عاد والدها من عمله منهكاً، جلس ومدّدَ قدميه، يريحهما من تعب السـنين، منتظراً اجتماع أسرته الصـغيرة، حول مائدة الطعام، رأى جميلة تتقدّمُ نحوه، وتضـــعُ أمامه الطعام، نظر لعينيها المتقدتين، وكأنّه يراها لأول مرة، أين ذهبت جميلة؟ من هذه التي تقف أمامه بفخر؟ أم أنّ عينيه ترسمان له شكلا لابنته، غير التي يعرفها ويألفها؟ هذا ما كان يقوله والدها في خلده الأبوي، جلســتْ قبالته بابتســامة رقيقة، مســدتْ على شــعرها، لترفع غرّتها قليلا أمام عينيها، انتظرها أولاً أن تحدّثه في الأمر، كان يعلم ضـــمناً ما تفكر فيه، ويعرف مدى حبها لوطنها ولقضـيتها الكردســتانية، ويرى بعينيه الواثقتين مدى تعلّقها بمقاتلي الجبال وبنشـــاطهم، وتبوح له ما يجول في خاطرها، حتى يتأكّد أنها لم تكن مجبرة على الانضـمام لوحدات حماية المرأة الكردية، وتشـارك في الحملات لتحرير روج آفا من الإرهاب الداعشيـــ وإخوانه، أخبرته بعد لحظات تأمّل، بما يدور في خلدها، عن حلمها المتشبث بقلبها، علتْ الابتسامة شفتيه، وقال لها: كنتُ أعلم يا صغيرتي، أنّك ستكونين ذات يوم، مقاتلةً شجاعة، لا تخافين الموت، في ســـبيل الوطن والحرية، كنت أعلم أنك حرة، ولا تقبلين الظلم، وإنّ دماء البطلات الكُرديات يسري في جسدك، ولذلك تركتك تقررين بنفسك هذا القرار، وأنا أشجعك عليه، وأؤيدك.

حضـــنتْهُ، وكأنّها كانت تحضـــنه لأول مرة في حياتها، وقد كبرتْ في تلك اللحظة عشرـ سـنوات مرة واحدة، ورمتْ عن كتفها ثوب الطفولة، وسـقطتْ دموع من عيني والدتها حين رأتْ إصرار جميلة على تنفيذ ما تريده لمستقبلها، عارضـــتها خوفا عليها، ولكنها علمتْ في النهاية إن جميلة كوالدها، عنيدة في الحق، فوافقتْ على مضـــض، وقبّلتْ ابنتها لتعلن بهذه القبلة، موافقتها على السـير قدماً، لتحقيق حلمها بالانضـمام عمّا قريب لوحدات حماية المرأة الكردية، أما والد جميلة، فلمْ تكن سعادته بابنته تعادل أي شيء في الحياة، فها هي صـغيرته، تكبر أمام عينيه بسرعة، لتُكمل مشـواره الوطني، الذي سـار هو نفسه في طريقه، حين كان شابا، ويستعيد ذكرياته، وكأنّه يرى نفسه، حين كان في الثامنة عشرـ من عمره، في تلك الليلة تحدّثَ والدها مع رفيق له، يخبره بانضـمام ابنته للتدريبات العسـكرية لوحدات حماية الشـعب والمرأة، وبعد الانتهاء من المكالمة، أكملَ حديثه لجميلة، أن أمهلها ثلاثة أيام، كي تستعدّ للسير في طريق حياتها الجديد، وتعيش مغامرتها التي اختارتها بنفسها.

وعلى مدار الأيام التي سبقتْ ذهابها إلى مركز التدريب، كانت تستقبل وتودّع الضـــيوف من الأهل، دموع الفرح أحيانا والحزن أحيانا أخرى، تجد سـبيلها في الأعين المودعة، وكأنّها لن تعود أبداً، حتى جاء عمها من إحدى المهمات العسـكرية، التي كان مشـاركاً فيها ضـمن وحدات حماية الشـعب الكردية، حين رأتْهُ مقبلاً عليها، ركضـتْ نحوه، حملها ليدور بها، وسـط ذهول الجميع وضـحكاتهم، كانوا يعلمون مدى تعلّقها به، ومدى سـعادتها بحضـوره، فلكلماته بالغ التأثير في اتّخاذ قرارها هذا، وتشـجيعه لها، زادها عزما وإصرارا، على السير قدماً فيه.

حدّثها عمها عن التدريبات التي ستتعرّض لها، وعن المهمات التي ستوكلُ إليها، وعن السلاح الذي ستتدرّب عليه، وعن الطلقة الأولى التي سترميها، وتطلقها في صدر ذلك العدو، الذي سيحاول، بشتى الطرق دخول المنطقة، ونهب خيراته، ونشر الفوضى والدمار، في تلك الليلة أتتْ صديقتها مع أمها لتودّعها، أخبرتهم جارتها بقرار زوجها بالرحيل والهجرة إلى تركيا، للعمل فيها، فقد أكلَ الفقرَ منهم حتى شبع، وبيتهم الذي كان يضمهم بين جدرانها، ويجمعهم في غرفة صغيرة، بات صاحبها أيضا يبغي طردهم من البيت، ويخيّرهم إما برفع قيمة الإيجار الشهري إذا أرادوا الاستمرار بالعيش في هذا المنزل، أو فليرحلوا عن هذا البيت، فما كان منهم إلا أن يهاجروا طلبا للرزق، ضاربين عرض الحائط، كل آمال أبنائهم بتتمة دراستهم، ابنتهم الكبرى طالبة جامعية في سنتها الأولى تبكي للفراق، وتنظر لمستقبلها الذي سيضيع على الحدود، كانت دموعها تسبق كلماتها، شعرتْ جميلة أنّه الوداع الأخير، حضنتْ صديقتها التي كانت تجلس بجانبها في المقعد المدرسي، وبكيتا كثيرا، وأصبحتا تذكّران بعضهما بأيام الدراسة، كانت الدموع تلملم بقايا أرواحهم المتهالكة، بفعل الذكريات، وبعد أن رحلت صديقتها مع أمها، جلستْ جميلة بجانب أمها، وسألتها، هل سترى صديقتها مرة أخرى؟

علمتْ بعدها من أمها فيما بعد، أن هذه العائلة تعذّبتْ كثيرا في طريقها لعبور الحدود السورية التركية، فعندما وصلتْ هذه العائلة إلى الحدود، وكانت نقطة العبور تقع بين عامودا وقامشلو، انتظروا في مكانهم ساعات طويلة، وحين انتصفَ الليل، قرّرَ المُهرّب الذي كان معهم، أن يرفع الأسلاك الشائكة، بعود خشبي، كي تستطيع العائلة بالمرور من تحته، حينها انطلقت أبواق سيارات الحدود التركية العسكرية عالية، تصمّ الآذان، وراحت أضواء

الكشّافات الكهربائية القوية، تسلّط أضواءها الساطعة، على الحدود باحثة عنهم، فما كان منهم، إلّا أنْ يُسرعوا في العبور، قبل أن يلقي درك الحدود التركي، القبضَ عليهم، بداية عبر الأب حتى يستطيع سحب الأولاد من تحت الأسلاك، وبقيت الأم في الطرف الآخر للحدود، تساعد ابنتها على العبور، وبعد أن مرّ الجميع من تحت الأسلاك، ما عدا الأم، تقدّمت الأم هذه المرة لتتخطّى الأسلاك، لكنّها ولشدة توترها، علقَ شعرَها المتطاير، بفعل الهواء، بالأسلاك الشائكة، حاولتْ أن تشدّ شعرها، وتسحبه من خلال الأسلاك، ولكنّها زادت الطينة بلّة، فكل حركة متوترة كانت تزيد الأمور تعقيدا، وتجعل الأسلاك تلتفُّ أكثر حول شعرها، وصياح وبكاء الأولاد، ووالدهم، يصل لعنان السماء، لكنّ القدر لم يكن رحيما معها هنا أيضا، فلا يكفيها ما عانته من فقر وقلّة حيلة، وما رأته على الحدود، وتشابك الأسلاك حول شعرها، حتى أتى كلب للحراسة التركية ليشدّها هو أيضا من قدمها، في هجمة رعناء، حتى ألتفّت الأسلاك حول عنقها، لتخنقَها وتفقدها القدرة على التنفس، كان عويل أبنائها وسط ذهول الأب وصراخه، كافيا لتقف الكرة الأرضية عن الدوران، وتقتل الضمائر في نفوس كل البشر، بقيت العائلة في مكانها تشاهد رحيل روحها عن جسدها، بجزعٍ شديد، حتى أتى حرس الحدود التركي مطلقاً الرصاص على الأب، لترديه جريحا في قلبه، قبل كتفه، كانت نظرات زوجته المسكينة، ماتزال متوجهة إليه، أنْ أتممْ مشوارك، وأكملْ طريقك، وحقق حلم الأولاد.

ألقى حرس الحدود القبض على الأب، وأمرتْ بترحيل الأبناء إلى معسكر للاجئين، وبعد مدة لحقَ الأب بأبنائه، ورحلوا إلى اسطنبول .

هذا ما سمعته جميلة حين عادت مرة في إجازة من معركة شاركت فيها ضدّ عناصر داعش، على الحدود السورية العراقية في منطقة الهول.

في صـــباح اليوم الثالث، اســـتيقظتْ باكرا، وجمعتْ ما يلزمها من ثياب ضرورية، في حقيبة أعدته لها والدتها، وراحت تنتظر والدها، كي يأخذها إلى مكان اجتماع الفتيات اللواتي كنّ مثلها، ينتظرنَ في شـــوق، أن يعشـــنَ مرحلة جديدة في حياتهنَّ، مرحلة المقاتلة الشابة.

لم تسمح لدموع الفراق، أنْ تسيل من عينيها، حين ودّعتْ أمها وإخوتها أمام باب المنزل، على العكس من ذلك، كانت ابتســـامتها تنير وجهها الصـــغير، حتى لا تزرع الحزن لفراقها في قلوبهم، حمل أبوها حقيبتها، وســـارا نحو مكان الحافلة، التي كانت تـ نتظرها في ناصـــية الشـــارع، وصـــلا إلى الحافلة، جلســـتْ جميلة في مكانها، بينما عيناها اغرورقتا بدموع الوداع لأبيها، فقد كانت تلك اللحظة، من أ شدّ اللحظات حدّةً، وأ صعب مما كانت تتـ صوّر، حينها أيقنتْ أنّ بقرارها هذا، ستخطو نحو حياة جديدة تعيشها، وأنّها أ صبحت الرفيقة جميلة المقاتلة، ولستْ جميلة الصغيرة.

نظرتْ إلى أبيها الذي ترك لدموعه أن تـسير على خده، لتخبرها با شتياقه لها، من قبل أن ترحل، تذكّرتْ حديثه لها البارحة، عندما فتح لها قلبه، أخبرها بأنّها تـشبهه، حينما كان شابا مفعما بالحيوية والنـشاط، كان شعلة من الذكاء، وتـشرّ بَ من قـضيته ومأ ساة شعبه روحَ الوطنية والنـضال، حتى ألقت الـشرطة الـسورية القبضَ عليه، لتودعهُ الـسجنَ لمدة أربعين يوما، مورس ضده كل أنواع التعذيب، كي يبتعدَ عن فكره الوطني، ويرتدّ عن تعلّقه بقضيته، كان في التاسع عشر من عمره، يتحضّر لتقديم امتحان الشهادة الثانوية، عندما ألقت الشرطة

القبض عليه، وقتها كان الشعب الكردي، يستعدّ للاحتفال بعيد نوروز، كطقس كُردي بامتياز، ترتدي فيها الفتيات الزيّ التقليدي، كالخفتان الطويل، الذي يصل لأخمص القدمين ويضعنَ العُصابة التي تغطي الرأس، وتعقدنَ نهايات أكمامه خلف ظهورهنّ، فتتمازج الألوان فيها، كما الربيع، ويلفنَ حول خصورهنّ حزاماً من صوف، أو من قماش، أو حتى حزاما ذهبي، بينما يرتدي الشبان السروال والسترة (شال و شابك)، مع حزامٍ قماشي ملوّن، حول خصرهم، فضلا عن العمامة الملونة، لقد كانت العائلات الكردية، تحتفل بهذا العيد، إما في القرى أو في ساحات بعيدة عن أجواء المدينة، فبينما كان الجميع، يحتفل بهذا اليوم الوطني الكردي الكبير، كان هو يستشيط غضبا في سجنه الأسود المظلم، كسواد قلوب من سجنوه ومنعوه من الاحتفال، وبعد إطلاق سراحه، عاد ليكمل نشاطه، ولكنّه في هذه الأثناء كان مضطراً لترك المدرسة، ومساعدة والده في تحمّل أعباء المنزل، فإخوانه الشباب، كانوا يدرسون في الجامعة، وهو يصغرهم عمرا، لذلك عليه أن يضحي بدراسته في سبيل أن يكمل أخويه دراستهم الجامعية، ويعمل ليسدّدَ لهم مصاريف الدراسة، بعدها توجّه إلى العمل في البناء، وترك الدراسة، لكنّ شعلة النضال كانت ماتزال تشتعل في روحه لتهدي طريقه وترشده، فتستمرّ حياته على هذا المنوال، يعيش ليعمل ويتزوج وينجب الأولاد، ويعلّمهم الحب، فالحب هو العطاء.

كان آخر ما قاله لها قبل أن تسير الحافلة: إذا أحببتِ وطنك ستعطين من قلبك كل شيء، ولكل من حولك الحب والاهتمام، كل هذه المحبة، رأتْهُ في عينيه، وهو يودّعها، ويلوّح بيده لها وهو يقول: لن يضيع أملي في الحياة، ولي ابنة مثلك.

وانطلقت الســيارة نحو عالمها الجديد لتعيش تجربة لم تألفها من قبل، حينها سطع عليها فجر ذلك اليوم، لتبدأ يومها الثالث في الكتيبة.

الفصل الثاني

بينما كانت شمسُ الشتاء الخجولة، في كبد السماء، تتوارى أحياناً خلف غيومٍ رماديّة، فتحجب تلك الغيومُ شــعاعَها قليلا، وتُنذرُ بهطول قريب للمطر، مُنعشةً آمال الفلاحين في القرى، لتقرّ أعينهم، وتهدأ نفوسهم المُضطربة، هطلت حبّاتٌ من المطر اللؤلؤية، لحظةَ توقّفِ الحافلة، بمركز التدريب الأول، الذي ســتتدرّبُ فيه، وهو كتيبة الشــهيدة نوال، وكان ذلك، في نهاية عام ألفين وثلاثة عشر، نزلتْ من الحافلة بتؤدة، لتستقبل جبينها أولى القطرات، سارتْ إلى داخل المعســكر، وجدتْ الكثيرَ من الفتيات مثلها في هذه الكتيبة، وقد ارتدينَ الزيّ العســكريّ، ويقمْنَ ببعض الحركات الرياضــية، ومنهنَ من يجلســنَ في حلقاتٍ دائريّة، تحت مظلة من الألواح المعدنية، يستمعْنَ لمقاتلةٍ تقف قبالتهم، كانت تحدثهنَّ في أمرٍ ما، أغمضتْ عينيها، واستنشقتْ الهواء بعمق، وكأنّها تتنفّسه للمرة الأولى، بكلّ هذه الحرية، شعرتْ بحيوية ونشاط غريب، توجّهتْ بعدها إلى مكتب التســجيل، كان المكتب صــغيرا نوعا ما، يحوي فقط على مقعدين جلديين مهترئين، وسرير معدني واحد، بملاءة فضية تغطيها، ربما للسرير تاريخ لا تعرفه، فكم من أجســاد معذبة، قد تشــبّعتْ من دموعهم، حتى ارتوت من أحزانهم أو من أحلامهم، أو ربما تخفي تحتها كنوزا من مشــاعر الوحدة والاغتراب، وهناك في منتصف الغرفة، تقبع طاولة معدنية، كان قد وُضع تحت إحدى قوائمها قطعة من بلاطة، كي تتوازن على الأرض، لقد تغير ميزان كل شيء في هذا الزمان، وما عادت تســتوي إلا بقطع من أرواحنا المضــطربة، اقتربتْ جميلة بخطوات مرحة من فتاة، بمثل عمرها، أو يزيد بقليل، ذات شعر خمري اللون، تجلس خلف الطاولة المرتجفة، فتحت الفتاة ســجلاً أخضرــ ودوّنتْ اسمَها الحقيقي والجديد، كاسمٍ حركي ثانٍ، لقد كان اسم تكوشين، الاسم الذي اختارته جميلة، عندما رأتْ صورة لمقاتلة شهيدة، معلقة على الجدار، مع عدد

من صور الشهيدات، كانت تحمل اسم تكوشين، لا تختلف عيناها العسليتان عن عيني جميلة، ولا شعرها المجدول خلف أذنها، عما تصورته جميلة في خيالها، فأرادتْ جميلة أن يكون اسمها الثاني الحركي، يعبرُ عن شخصيتها، وحياتها الجديدة، ومعناه (الكفاح)، لتستلمَ ثوبا عسكريا، وتمنحها المسؤولة عنهم، بعضَ الوقت، كي تستعدَّ للمدرس الأول، من التدريب الأول، في هذه الكتيبة، كمقاتلةٍ شابةٍ، ستنمو كزهرة في أرض الخير قريبا، أو كنجمة تشعّ ألقاً في حضرة القمر، قضتْ ليلتها الأولى، في الكتيبة، مع عدد من الفتيات في غرفة صغيرة، تمددتْ على سريرها الحديدي البارد، شعرتْ وقتها، بقشعريرة الوحدة، تسري في عظامها، فدثّرتْ جسدَها بلحافٍ ذي لونٍ ترابيّ، وأمستْ تنظر للسقف، تتأمّله بعيون راجية، ألّا يخيّبَ المستقبلُ حلمَها، فتحقّق ما تصبو إليه، سامحةً بذلك للهواجسِ، عن غَدها، أن تزورها، وتُؤرقَ مخيلتها، بما فيها اشتياقها لأمها، ولأخواتها الصغار، فكيف سيستقبلون نهارهم في اليوم التالي، من دونها؟ نامتْ تلك الليلة، وملءُ عينيها شغفٌ لغدٍ مجهول المعالم.

في الصباح الباكر، زارتها الشمسُ في هدوء، تغازلَ عينيها بنشوة، مستمتعة بإثارة الصباحِ على وجهها الجميل، استيقظَت تكوشين على صوت قائدة الكتيبة، تُنذرهنّ بالاستعداد لبدء الاجتماع الصباحي، كان ذلك في الساعة السادسة صباحا، وقفت مع رفيقات معها في صفوف طويلة، وأرتال منتظمة، تمّ بعد ذلك تقسيمهنّ إلى مجموعات صغيرة، مكوّنة من أربع إلى ثماني مقاتلات، وبعد التعرّف إلى الأسماء الحركية لهنّ، بدأتْ معهنّ ممارسةَ التدريبات الرياضية، جرتْ حول ساحة التدريب، عدّة مرّات، حتى أنهكتْها هذه التمارين كثيراً في بادئ الأمر، وباتتْ أنفاسُها متقطّعةً، تضع يديها أحياناً على ركبتيها، لتتوقف لحظاتٍ ثم تلتحقُ بهنّ مسرعةً، تطايرتْ خصلاتٌ من

شعرها المعقود في جديلة، كشعاع شمس ربيعيّة، سطعتْ بنورها على الورود والأشجار، تبسمّتْ عيناها في ألقٍ، غيرَ آبهةٍ بضحكاتهنّ اللطيفة، ليزداد نشاطها، وتشاركهنّ الضحك.

عيناها ترنوان دوما إليه، تلاحقانه أينما وُجد، تنتظر اللحظة حتى تلامسه بقلبها قبل يديها، كان هناك في يد الجميع، إلا في يدها، رائحة البارود المنبعث منها، و صوت تلقيمه، كان أكثر ما يحزّ في نفسها، لقد كانت تنتظر أن تبدأ نهارها، بحمله بين ذراعيها، أن تسدد من خلال شُعيرة التسديد الموجودة في مقدمة السبطانة إلى الهدف الذي من أجله غيّرت مصيرها، فتغيّر حقاً، أرادت أن تعيش التجربة من بدايتها، لأنّ لكلّ شيء في بدايته لذّةٌ، وتجربةٌ ممتعةٌ، لا توازيها أيّة تجربة أخرى، وخاصة، عندما تقومُ بها، باشتياق كبير، تتوق لبدء الدرس على أحرّ من الجمر، يومها، جلستْ مع مجموعتها في حلقة دائرية صغيرة، بد اية، تعلّمتْ كيفيّة فكّ وتركيب الكلاشنكوف، وتعرّفتْ إلى كل أجزائه، وعندما حان دورها كي تنفّذَ ما تعلّمتهُ، تقدّمتْ زميلاتها في المجموعة، ووقفتْ خلف الطاولة، لتنظرَ إلى لسلاح، الذي لطالما انتظرتْ احتضانه، وضمّه لصدرها، مدتْ يديها إلى الكلاشنكوف، وبدأتْ بنزع المخزن، ورفع الغطاء وسحب النابض المُرجع، ومن بعدها سحبتْ الرتاج، وانتهتْ أخيراً، بأنْ رفعتْ أسطوانة الغاز، وبعد عدة محاولات متكررة فاشلة، رافقتها الضحكات والملاحظات، قامتْ بتفكيك أجزاء السلاح، وتجميعه مرة أخرى، ليعود إلى الحياة بين يديها من جديد، وبحركة تلقيم واحدة، أعلنتْ وقتها تكوشين، أنّها حققتْ أوّل أحلامها، وأنّها على قيد الثورة.

ورغمَ قساوة التدريبات العسكرية، وصعوبة التجربة الجديدة التي تخوضها، لم تتفاجأ، ولم تشعر بالخوف، ولم تُظهرْ للجميع تعبها وإرهاقها الشديد، بل بقيتْ محافظةً، على رباطة جأشها، وابتسامتها الرقيقة، تظهر على وجهها المشرق، في كل حين، فلن تنسى ذلك اليوم، الذي كان من المُقرّر فيه، تطبيق ما تعلمتْهُ عن السلاح الفردي الكلاشنكوف، وذلك بالذهاب إلى ساحة الرمي، وترمي عدة رصاصات باتجاه هدف معدني، وقتها، وقفتْ مع عدد من الرفيقات في صفٍّ واحد، طلبتْ منها القائدة، أنْ تتمدّد أرضا على بطنها، ساندةً أخمص بندقيتها لكتفها، وتنظر من خلال المنظار الموجود على السلاح باتجاه الهدف المعدني، واضعةً سبابتها اليمنى على الزناد، ومستعدةً لتنفيذ أمر الرمي.

كانت تنظرَ من خلال المنظار، إلى هذا الهدف المعدني، الماثل أمامها على بُعد خمسين متراً، على أنّهُ عدوّها اللّدود، الذي يريد سرقة وطنها منها، سلب أحلامها وآمالها، نهب مدينتها، وقتل الأبرياء، كانت تنتظرَ أمرَ الرمي بفارغ الصبر، حتى تُفرغ ما في جعبتها، من حقد وكره عليه، برصاصاتٍ مجبولة بالقهر والحرمان وبدماء الشهداء، وأخيرا، صدرَ الأمر من القائدة، أنْ تقذفَ على الهدف المعدني، حينها سمعتْ لأول مرة، صوت الرصاص المنبثق من سلاحها اتجاه عدوها، ليقتل خوفها، ويجتثّ حزنها، ويزرع في قلبها، بذرة الأمان والقوة، والأمل لمستقبل ينتظرها، في وطن انتشر فيه الحزن والخوف، في كل بقاعه وأرضه.

أنهتْ تكوشين الدورة العسكرية الأولى في الكتيبة، باحتفال كبير لتخريج المقاتلات، وقفت فيها بجانب رفيقات السلاح في صفّ طويل، حملنَ السلاح، وأدّينَ حركات عسكرية، وبعدها تقدمنَ ليقفنَ خلف طاولة، أمام جميع

الرفيقات المقاتلات، وبحضور عدد غير قليل من الرفاق والمقاتلين، طاولةٌ فُرشتْ عليها رايتا وحدات حماية الشعب والمرأة، وأمامهنّ ينتصب سلاح الكلاشنكوف كانتصاب أرواحهنّ الشجاعة، مدّتْ تكوشين يدها اليسار لتضعها على الطاولة، بينما ضـمّت يدها إلى قلبها، وراحتْ تنشـد مع رفيقاتها قَسـم التخرج، فتقول مردّدة، وبصـوت جهوري: (في هذا التدريب الذي تلقيته في كتيبة الشـهيدة نوال، سـأنضـمّ إليه بكل قوتي، وأعتزّ بالنهج الثوري الديمقراطي، وحرية المرأة والتحلي بالانضـباط، والأخلاق الثورية، وبدماء الشـهداء، وعلى شرفي وسـلاحي أقسم، أقسم، أقسم)، علا التصفيقُ حاراً، من كل الحضور، في هذا اليوم العظيم، الذي لم ولن تنساه تكوشين يوما.

بعدها عادت في أول إجازة لها إلى منزلها، استقبلتها عائلتها بشوق كبير، حدثتهم عن الأيام التي قضتها مع رفيقاتها في الكتيبة، عن دموع الاشتياق، عن أحلام الطفولة الممزوجة بآمال غدها المضـطرب، لكنّ إجازتها لم تسـتمر طويلاً، لأنها لم تَطقْ أن تبقى بعيدة عن رفيقات السـلاح، عادتْ بعد عدة أيام إلى كتيبتها، كي تعيش منذ ذلك الوقت حياة عملية، مسـتفيدة مما تعلمتْه في التدريبات الأولية، لقد كانت الدورات التي شـاركت فيها، السـياسـية منها والعسكرية، تزيدها قوة وثقة، وتشعرها برهبة الزيّ العسكري، وأهمية السلاح في الدفاع عن روج آفا، لأن الدفاع عن روج آفا بحاجة إلى إعداد مقاتلين ومقاتلات، أشـداء، يعرفون كيف يسـتخدمون هذا السـلاح، في المسـار الوطني الصـحيح، كل هذا لم يُشـعرها بالخوف والضـعف، بل على العكس من ذلك، كانت أقوى بوجود كل هذه الرفيقات من حولها ...

أحيانا كانت تكو شين، تتعب من حمل الـسلاح، رغم ذلك لم تُظهر تعبها لأحد، ولم تضـعف أمامهنّ، ولم تُبدي خوفها من الرصـاص، وكانت دائمة الطلب للمشـاركة في الحملات العسـكرية، وقالوا لها ذات يوم: إنّ لك شـأنا كبيرا ذات يوم، وذات يوم سـنرفع رأسـنا بك، وسـنفتخر بأنّكِ بطلة من بطلات وحدات حماية المرأة.

صـباحات متكررة، أشـواق مسـاءها لا تختلف عن صـباحها، عما كانت تطلبه دوما، تعيش لحظات ترقب للمجهول، لا تعلم متى يأذن القدر لها، بأن تشـاركه في تغييره، لربما سـتسـتطيع أن تمنع دماء الأرض من السـيلان، أو من الأحزان أن تـستمر، فما يـشغل بالها دائما تلك الكلمات التي تـسمعها كل حين، أن الإرهاب لن يكتفي بدمائهم، ولن يشـبع من خراب ديارهم، إلا بعد أن يكون الـسيد على أرواحهم كلها، ككل أراضيهم، وقتها كانت تكو شين في كتيبة الشـهيدة روجدا، عندها تلقّتْ الكتيبة أمرَ الانضـمام لحملة (تل براك)، جنوب قامشـلو، لتحرير البلدة من داعش، هذا العدو اللاإنسـاني، الذي يزرع الموت والخراب والدمار أينما حلَّ، ولم يترك حجرا على حجر، وقتلَ المواطنين الأبرياء، وسبى النساء والأطفال، وحطّمَ بنيان المجتمع، وفرّق بين العائلات، كلّ هذا كان يقوم به هذا التنظيم باسم الدين الإسلامي الحنيف، والدين منه براء.

يومها شـاركتْ الكتيبة كلّها في المعركة، وكانت بغاية السـعادة حين أخبرتها قائدة الكتيبة بقرار المشـاركة، لكنها أمرتها أن تتحملَّ مسـؤولية حماية المقرّ، وألّا تشارك معهنّ في المعركة، كونها ضعيفة البنية وصغيرة الحجم.

طالبتْ بحقها بحمل الـ سلاح، ومشاركة الرفاق في القتال، وإنّ الدفاع عن روج آفا لا يرتبط بصغر الحجم أو بضخامة الجسم، بل يتعلّقُ بالاستعداد التام

للمواجهة وبالتدريب على السلاح وبالشعور الوطني والإنساني، ورغم كل هذا الإصرار لم تقبل القائدة بذلك، فكانت تثور في داخلها، وزادَ هذا القرار من إحباطها، لكن القائدة أخبرتها أنّ المعركة ليست في الخطوط الأمامية للجبهات دائما، المعركة أيضا في الخطوط الخلفية حين تكون الحماية ومساعدة الجرحى، وأخبرتها أنّ سلامة الرفاق وحماية المقرات هو أيضا نضال، هنا سكنَ هيجانُها المندفع موقنةً بصحة كلامها، فبقيتْ في الخطوط الخلفية للمقاتلين تراقب كيف تقاوم الرفيقات ببسالة وشجاعة كل هؤلاء المجرمين بقوة وعزم، كيف يستخدمنَ السلاح في مكانه المناسب ليقوم بوظيفته على أكمل وجه .

بدأتْ حملة تحرير بلدة (تل براك) مع تحرير بلدة (تل حميس) القريبة من قامشلو، مروراً بحوض الخابور وجبل(كزوان) عبد العزيز، في ريف مدينة الحسكة الغربي، بتاريخ 21 شباط حتى 9 آذار 2015 ، واستمرتْ الحملة بتحرير قرية (عالية) الواقعة غربي مدينة(تل تمر) وبلدة (مبروكة) وبلدة (دهماء)، وصولاً حتى أطراف (تل أبيض - كري سبي) في الريف الشمالي لمدينة (الرقة)، وتّم تحرير هذه المناطق مما يسمى بتنظيم داعش الإرهابي.

و بتاريخ 27 كانون الثاني عام 2015 حرّرتْ وحدات حماية المرأة وبمشاركة وحدات حماية الشعب مدينة (كوباني) واستعادت السيطرة عليها بشكل كامل بعد معارك دامت مئة واثنا عشر يوماً، وبعد انتهاء حملة (تل براك) جنوب قامشلو، قرر الرفاق ضم كتيبة الشهيدة روجدا إلى كتيبة الشهيدة عدالت، وجعلها كتيبة واحدة لنقص العدد، وفي هذه الفترة تعدّدتْ جولات تكوشين بين الكتائب العسكرية التابعة لوحدات حماية المرأة، وفي كل مرة كانت تحظى بالمحبة والاحترام والتقدير، لمّا رأوا فيها من عزم وإصرار ونشاط،

وهي أيضـا كانت تبادلهم الحبّ والتقدير، ويزداد تعلّقها بالقضـية التي تدافع عنها والتي تعمل لأجلها، فكانت وحدات حماية المرأة ترمز لها دوما بهذا المفهوم الكبير من الوطنية والتعلق بالأرض والتاريخ والمستقبل.

فجرَ آخر، ككل أيامها إثارة، يشـقشـقُ مع صـوت الطيور، على ذلك الحاجز، الذي يلقي تحية الصـباح، على مخيم للاجئين، في منطقة الهول، جنوب الحسـكة، كلّ يوم في إشراقته الجديدة، رائحة الصـباح المغبرة، رغم اختلاطها بروائح الخوف والبارود، إلّا أنّها تغزو قلب تكوشين، ببعض الأمل.

تقف خلف الحاجز، تهرب من صـوت القذائف والغارات والقنابل، وتسـتمع لصـوت الطبيعة، في تأمّلٍ، وتنشـغل بصـور في عقلها وقلبها، لأطفال أكلّتهم نيران شـظايا التفجيرات، وصـور أخرى لرفاق غادروا الكتيبة، شـهداءَ الحرية والوطن، وأمنياتٍ لا تدري إذا كانت سـتتحقق، أم لا، لغدها الذي تترقبه، على جمر الانتظار، شـارکتها تكوشـين بدمعة، على خدّيها المتوردتين، واختلطت بصوت الرصاص.

نظرت إلى السـماء، رأت دخانا بعيدا، لبادية شـاسـعة، من الحجارة واليأس، وقرىً تحترق، وقوافل بشرـية كئيبة، تسـير نحو مخيم النازحين هذا، هرباً من الموت والدمار، من بطش وحوش ليسوا بآدميين، سيطروا بجهلهم على الحجر والبشر.

فجأة، باغتها صـوت من جهاز اللاسـلكي، أخرجها من شرودها، وأعادها إلى عالمها المهزوز أصـلا، بفعل الألم، عالم ملأته الدماء والحزن، لقد كان الصـوت القادم محذراً من سـيارة مصـفّحة، غريبة، وقد تكون مُفخّخة، بالكره والحقد

والنار، تأتي صــوب نقطتهم، بسرــعة مهولة، وجدتها من بعيد، ســيارة تحارب حجارة الطريق، تأكل عجلاته من ترابه، فيتناثر الغبار على جانبيه كالإعصـــار، مســتفيدة من تضــاريس منطقة الهول الصــحراوية، لتظهرَ من وادٍ قريب، لا يبتعد سوى ببضع مئات من الأمتار.

وكثور هائج، راحت السيارة تتقدّم نحوها بلا هوادة، حينها صرخت على باقي الرفاق المقاتلين المرابطين في النقطة العســكرية لتتجه فوهات بنادقهم كلّها، نحو هذا الزائر البغيض، ويرشقونها بوابل من الرصاص والقذائف، كالمطر، على السيارة القادمة صوبهم.

نظرات عينيها المتجهّمتين، توحيان بغضــب لا مثيل له، بينما قلبها يغلي كجحيمٍ يفور بالحمم، ولحماســتها الزائدة انتصــبتْ رغماً عنها، لتتّحدَ، هي وسلاحها الكلاشنكوف معاً، في جسد واحد، فكانت رصاصاتها نابعة من قلب محترق، ضغطت بسبابتها على الزناد، بشكلّ أكثر، حتى كاد السلاح ينفجر، من فرط الحماســة، حينها لم تجد بُدّاً من أنْ تتجهَ إلى قاذفة (bks) وتقف خلف الرامية، طالبة منها بعزم، كي ترمي من هذا الســلاح أيضــا، الســلاح الذي كان ممنوع عليها أن ترمي منه، لهزال جسدها، وعدم مقدرتها على السيطرة عليه، ولكنّها حين فعلت ذلك، لم تأبه لتحذير الرفاق لها بعدم الاقتراب منه، بل على العكس من ذلك، لقد كان هذا الوحش الناري رهن أمرها، في ســلاســة تامة، كأنها تعرفه منذ زمن، ومع اقتراب الســيارة المفخخة من الحاجز، لم يتبقّى من الطريق ســوى أقلّ من مئة متر، حينها تلقّتْ الأوامر من القيادة، بترك الحاجز، خوفا على الســلامة العامة للرفاق، ولكنّها أبت ذلك، فلا وجود لمصــطلح الانسحاب في قاموسها، واستمرّتْ برمي الرصاص نحو السيارة الهائجة، التي لم

تؤثّـــر بها لسُمكِ تصفيحها، وكأنّ القدر قد سمعَ نداءها واستجاب لها، فقد ارتطمت عربة الموت هذه بحجرة كبيرة ظهرت بطريقها، ولسرـعتها الزائدة ومناورتها المتهورة، انقلبتْ رأســا على عقب، مرات عدة، فيصـيبها العطب، وتنفجر بعدها بلحظات، مُخلّفة نيران كبيرة، وشظايا، ألهبتْ كلّ شيء، ويصيب الحاجز ببعض منها.

عاصـفة نارية هبّتْ نحوهم، كان فيها الغبار المشـبّع بالحقد المشـتعل، قد أحرقَ ما تبقّى في أرواحهم من وجلٍ، لتنغمس قلوبهم في فرحة عارمة، جاب صـداها الأرجاء كلها، لنجاتهم من خطرٍ داهمهم، كانت تكوشـين المميزة بينهم، فقد تخطّتْ رُهابَ المواجهة، بعد أن امتطتْ صـهوة جواد أصـيل، ولم تسـمح لعظمة هيكله أن يخيفها، أو أن يمنعها مما كانت تصـبوا إليه، فهُزال بدنها لن يقفَ منذ اليوم عائقا أمام طموحها، ومع آخر رصـاصـة من سـلاح (bks) قتلت تكوشين بها كلّ الخوف.

لا تتذكّرَ تكوشـين متى انتعلتْ فردة حذاءها الأول، كلّ ما تتذكّره أنها رأتْ قدمها داخلها، وقد لبسـتْ الأخرى، في ذلك الصـباح الباكر الذي اهتزّ فيه سقف غرفتها الإسمنتية بعنف، ومعها ارتجّ كلّ شيء.

قذيفة صاروخية، قذيفة صاروخية، تحليق طيران...

اخرجوا جميعا لتنجوا بأنفسكم.

كان صـوتها العالي يختلط بارتطام القذائف النارية بأرض النقطة العسـكرية في الهول، كي تركضَ مع المقاتلين نحو الخنادق التي باتت حصـونا لهم، تحميهم من غيلان بأجنحة طائرة، تحوم ليلا لتصـطاد أجسـادهم دون

أرواحهم، وتشعر برأسها يعدو بسرعة لا تصدق، متأبطة سلاحها، محاولة ألا تترك أحدا في الغرفة خلفها، وحتى لا تشعر بالخوف كان عقلها في حالة اهتياج مسعور ضد الفزع.

طريق ترابي، نتجَ من تزاوج الجبل مع الوادي، معبّدة بالوجع، يصل بين جبال سنجار ومنطقة الهول، جعلتْ عناصر داعش منه، طريقا لمرورهم المريب، لينتقلوا عبره، بين حدود الدولتين (سوريا والعراق)، ناقلين بين ثناياها كلّ شيء، أسلحة وغنائم، و جاعلين منه ممراً لسبايا حربهم المهين، ولهذا السبب كانت النقطة العسكرية لوحدات حماية الشعب والمرأة في هذا المكان متربصة بهم، لتقطع عليهم هذا الطريق الحيوي، ويحرّر مقاتلوه الأسرى، و يدمّروا آليات تنظيم داعش، ويساعدوا المواطنين الفارّين منهم وتسكنهم في مخيم الهول، لذلك كانت طائرات الجيش التركي تقصف هذه النقطة العسكرية، وتدمّرَ حواجزهم، حمايةً لعناصرها الإجرامية، وكان ذلك في الصباح الباكر من الصيف الماضي.

ما إنْ وصلتْ تكوشين إلى إحدى الخنادق، رمتْ بجسدها داخلها، لكن الطائرة كانت ما تزال تقذف الأرض بالنار، حتى اشتعل المكان كله، ابتعدت عن الخندق كي لا تصل إليها الشظايا، وجرتْ مسرعة مع عدد من المقاتلين نحو خندق أبعد، لتلاحقهم رصاصات صادرة من الطائرة التي تحلق فوق رؤوسهم، حينها كانت الشظايا أسرع منها لتصيبها في قدمها اليمنى، وتسقط مغشية عليها.

يهدأ الصخب، وتنقشعُ سحب الدخان والغبار، لتبدأ السيارات بنقل الجرحى والمصابين جرّاء هذا الهجوم إلى مشفى الحسكة، كانت فيها تكوشين

مع من أُصيب، فكيف لها ألّا تُصاب؟ وقد قُصفتْ الكتيبة بعددٍ من القذائف، وترحل بعدها طيور الشر هذه إلى مكمنها بلا ندم.

وبمعجزة نجت، واكتفت هذه النيران بجرح قدمها، وارتوت من دمها، وتحت غمرة الفرح، لم تنسَ أنها الهدف، ولمّا فاح عطرها في أرجاء الدمار، سكنت إلى قلب والدتها، تشكو لها ظلم السنين، وخلفَ ذلك الحاجز، عادت من جديد، تقف وتنظر إلى الشمس وتقول: نعم ... ما زلتُ حيّة.

توجّهتْ بعد ذلك إلى بلدة(الشدادي) جنوب الحسكة للمشاركة في عملية تحريرها من عناصر تنظيم داعش، ضمن كتيبة الشهيدة روجدا، حينها تعرفتُ على الرفيقة فيان (آسيا عنتر) التي كانت رمزاً للجمال والقوة والثقافة، ومن الرفيقات اللواتي يمكن الاعتماد عليهنّ في قيادة الكتيبة على أحسن وجه، فكانت برفقتها دائما، تخبرها دوما أنّ المرأة الكردية أقوى من نساء كل العالم لأنهنّ لا يخافون الإرهاب، من المقاتلات اللواتي تشبّعنَ بروح النضال، وراح عطر استشهادهن، ينثر الخير في الأجواء ويزرع الأمل في النفوس.

ومرة أخرى، لم يُسمح لها بالمشاركة أيضا في الحملة، بسبب إصابتها، وعودتها حديثا من النقاهة الصحية، وضعف بنيتها الجسدية، رجتهم كثيرا، أن يسمحوا لها بالقتال، أن يتركوها تمارس حقها، في الدفاع عن روج آفا، قالت لهم: إنّني لستُ بأحسن حال من الرفيقات والبطلات، اللواتي يسطرن بشجاعتهنّ في سبيل تحرير تراب الوطن من رجز الأعداء، صحيح أنني ضعيفة البنية، وصغيرة الحجم، لكنني قوية، وقادرة على حمل السلاح، وأستطيع أن أنفّذ الأوامر العسكرية، وأدافعَ عن الرفاق والرفيقات، وإنّني لم أرتدِ هذا الزي العسكري

وأحمل على كتفي إشـارة وحدا ت حماية المرأة، كي أتزيّنَ بها، بل لأنّني مقتنعة بوحدات حماية المرأة، ويجب أن أكون على قدر المسؤولية.

قالوا لها: إنّ الوقت مازال مبكرا، لتشـــاركي في المعركة، فمكانك في هذه الكتيبة، ومهمتك عظيمة، لا يقلّ شـأنا من القتال في الجبهات، إنّنا نشـدّ ظهرنا بك، وبســـلاحك هذا ســـتحمينا من الخلف، إنك من هؤلاء البطلات اللواتي نستطيع الاعتماد علهين في حماية الكتيبة.

ربتتْ الرفيقة فيان على كتفها، وانحنتْ لتقبّل جبينها، وتضّـــمها إلى حضـنها، وتشـعرها بأن غضـبها نابع عن محبتها لوطنها، فهذا مصـدر فخر لها، ولوحدات حماية المرأة، ولهذه الكتيبة العسكرية...

كا نت تجدُ الرفيقةَ فيان، ذ لك الملاك الحارس لها، بجمالها الكردي، وبثقافتها، وبثقتها الكبيرة بنفسها، لقد تعلّمتْ منها، ما هو حبّ الوطن، وجهها الجميل ذاك، يشعّ نورا، حين تتحدث، فيملأ الكونَ وما حوله بهاء.

هاتفتْ تكوشـــين أمها يومها، من هاتف الرفيقة فيان، طمأنتها على صـحتها، وطلبت أمها منها، أن تهتم بصـحتها، وتعتني برفاقها، وأن تكون سـندا لهم، فهم عائلتها الحقيقية .

وحين ســـألتْ عن عمها، أخبرتها أنه هو أيضـــا قد أصـــيب في أحد الاشتباكات مع عناصر داعش في الحسكة، تمنّتْ له الشفاء والصحة، فقد كانت متعلقة به كثيرا، وكان له دور كبير في زرع بذور حب الوطن والدفاع عنه، وشجعها كثيرا حين انضمّتْ إلى وحدات حماية المرأة.

كانت الإصابة التي تعرض لها عمها برصاصة في صدره، من قناص كان يختبئ خلف نافذة، فحين ألقى عمها القبض على داعشي ذي لحية طويلة، رفع المجرم يديه عاليا ورمى سلاحه أرضا، فاقترب عمها منه، انحنى الداعشي- وإذا بقناص كان يصوب فوهة بندقيته نحوه، ويرمي برصاصة في صدره، لكن الرصاصة لم تصبه في قلبه، بل في رئته اليمنى، تعذّب عمّها كثيرا حتى استطاع الأطباء إخراج الرصاصة، ليعاني فيما بعد، من ضيق تنفسه، ولكنه الآن في صحة جيدة .

وبعد انتهاء حملة تحرير مدينة الشدادي جنوب الحسكة، وطرد تنظيم داعش بعناصره منها، مكثت تكوشين، في كتيبة الشهيدة روجدا، وعادتْ في إجازة لخمسة أيام إلى مدينتها، لتحضنها أمها، فرحةً بعودتها سالمة، راحت تحدّثها عمّا عاشته من أوقات عصيبة وأخرى سعيدة، وكيف تتقدّمُ الرفيقات بشجاعة، وكيف استشهدت إحداهن برصاص الغدر، وكيف كان مظهر هروب عصابات داعش من المنطقة التي تم تحريرها، والأسرى الذين سقطوا بأيدي المقاتلين الكرد، كانت مغامراتها الكثيرة لا تنتهي، وهي تسردُ لعائلتها، ما كانت تعيشه وتراه يوميا .

كان والدها ينظر لها بفخر كبير، ليتباهى بها ويتفاخر أمام أصحابه ورفاقه، لقد كان كثير الحديث عن إصابتها التي تعرّضتْ له في بلدة الهول، وكيف تجاوزت الأزمة، بعزم وإصرار، على الاستمرار في نهج الثورة، ورفع راية وحدات حماية المرأة، وحين طلبها أحد أصدقائه زوجةً لأبنه، قال له إنه قد وهبَ ابنته للقضية، وعقدَ قرانها في ساحات القتال...

حملة منبج

كانتْ تكوشين، على علمٍ باقتراب حملة تحرير مدينة(منبج) العسكرية، حين كانت ضمن كتيبة الشهيدة روجدا، والذي كان من الضروري تحريرها، من رجز الجماعات الإرهابية، ومن بينها داعش، لكنّها كانتْ تجهل موعدها، وفي أيّ يوم ستعلن الكتيبة، المشاركة في هذه الحملة، وذات صباح، تمّ إعلامها بالتحضير للذهاب إلى منبج، والاستعداد لهذه الحملة العسكرية الكبيرة.

امتدّ ذلك الطريق طويلاً، ولكنّها لم تكن مثل أي طريق، فأسفلت الطريق الأسود، بفعل احتراق السيارات والمنازل، تخللتها الحفر، التي طالتها القذائف، أثناء تحريرها، مخضبّة بلون الدماء، تتألّق تحت شمس صفراء كبيرة، بدت أكبر حجما، وأقرب من المعتاد، في ذلك الصيف الحار، وهي تلقي بأشعتها على تلك الرمال، على حافة الطريق، لتزيدها حرارة، كانت الأشجار أحيانا، تظهر من بين التلال، والبيوت البعيدة، خلف قرى أبعد مما كانت تبدو لها، فلمنبج أهمية عسكرية كبيرة، ويجب تحررها، ورفع راية وحدات حماية الشعب والمرأة فوق أبنيتها وساحاتها، ولتعود المدينة لأبنائها، وقتها أطلقت قوات سوريا الديمقراطية، من خلال مجلس منبج العسكري المنضوي تحت رايتها، بدء حملة موسعة، باسم حملة تحرير منبج بتاريخ 2 يونيو 2016، والهدف منها السيطرة على مدينة منبج بالريف الشمالي الشرقي لمحافظة حلب، شمال سوريا، بمساندة مباشرة من طيران التحالف الدولي الذي تقوده أمريكا.

بدأت وحدات حماية الشـــعب والمرأة، الحملة العســـكرية على مدينة منبج من محورين، الأول من منطقة سد التشرين، والثاني من منطقة جسر قره قوزاك، إضـــافة إلى الضربـــات الجوية لطائرات التحالف الدولي، لمواقع تنظيم دولة داعش، تمكنت هذه القوات الكردية، في الأسبوعين الأولين من الحملة، من السيطرة على عشرات القرى، والمزارع في أرياف منبج الشرقي الشمالي والغربي الجنوبي، وقطع الطريق على التنظيم، بين مدينتي منبج والرقة، وذلك لقطع الإمداد عن التنظيم من معقله الرئيسي في سوريا.

وبعد سيطرة هذه الوحدات الكردية، على طريق منبج- جرابلس بالجهة الشـــمالية، وعلى طريق منبج- حلب بالجهة الشرـــقية، تمكنت القوات من محاصرة المدينة من كافة الاتجاهات، وقطعت الامدادات عن التنظيم، كون منبج تعتبر الطريق تعتبر الطريق الواصـــل بين ســـوريا وتركيا، لقد لجأ التنظيم الإرهابي، إلى اســـتهداف مواقع قوات ســـوريا الديمقراطية، بعد أن تمّت محاصرة عناصره داخل منبج، حين شنّ عشرات الهجمات بالسيارات المفخخة من جهة جرابلس بالجهة الشمالية لمنبج، ومن طريق مدينة الباب غرب منبج، بغية فك الحصار، عن عناصره المحاصرين، داخل المدينة.

إلى جانب ذلك اتخذ عناصر داعش المدنيين، كدروع بشرية، بغية تهديد التحالف الدولي، وقوات سوريا الديمقراطية، بعدم قصف مركز ومحيط المدينة، ما دفع بالتنظيم إلى تثبيت مواقعه في المدينة، واتخاذ المدنيين دروعا بشرـــية لهم.

يومها وصـلت الكتيبة إلى مشـارف مدينة منبج، وكانت تكوشـين برفقة الرفيقة فيان والرفيقة روزالين، تلقّتْ حينها الكتيبة أمر الوقوف في أحد النقاط

التي تم تحريرها الحواجز وتفتيش المارة وبعد أن تمركزوا في أحد البيوت، ورفعوا الحواجز الترابية، حول مركزهم، لم يكن تمركزُ الكتيبة في هذه النقطة سهلاً، لقد جابه المقاتلون والمقاتلات الكرد، عناصرَ داعش بالسلاح والنار، حتى وصلوا لهذه النقطة، وكانت أعداد الإرهابيين في تزايد مستمر، يحتشدون في نقاط مهمة، تجعلهم يرمون رصاصاتهم نحوهم عن بعد، كان ممن معها في الكتيبة، مقاتل اشتهر بقنصه للدواعش، كلما لمحهم من بعيد، يومها انتفض فزعاً من غفلته على صوت أزيز رصاصة مرّتْ بجانبه كلمح البصر، وأخرى أصابت الجدار الذي يختبأ خلفها، لتصدر صوتا، كصاعقة لحظة اصطدامها بالأرض، لتخرجه من شروده، فزادت من خفقات قلبه رغما عنه، وسرت الرجفة في أوردته، محاولاً السيطرة على أنفاسه المتلاحقة، مستجمعا قواه مرة أخرى للانتقام...

على طول المدى، كان عيناه تجوبان الأرجاء، وهو من مكانه العالي في صومعة الماء الشاهقة، لتلك البلدة المتاخمة لمنبج في الشمال السوري؛ يبحث عمّا يؤرق مضجعه، من خلال منظار بندقيته القنّاصة، ويفتّشُ بعينه اليمنى المرابطة خلف المنظار، من بين الركام المتهالك للأبنية، التي بدتْ كهياكل عظيمة، لا روح فيها، عن ذلك الداعشي- الذي يقتل في كلِّ حين كلَّ من يتحرك، مانعاً وحدات الحماية الكردية، من التقدم نحو أرض وطنه ليزرع فيها الموت.

لم تفلح الطائرات في العثور على القناص الداعشي، ولم تستطع القذائف من تفجير مكانه، أو حتى شلّ حركته الدائمة، بينما ذلك القناص الكردي لم يترك شيئا إلّا وأطلقَ الرصاص عليها، علّه يصيب ذلك الداعشيّ في مقتل، ويمنع نزيف الدماء التي تسيل من رفاق سلاحه.

وعلى مدى يومين كان هذا القنّاص الداعشيّ يصول برصاصاته ويجول في الأرجاء يقتنص بخبثٍ كل شيء، حتى أصاب قلب الرفيق جوان اليأس، في العثور عليه، وابتعد عنه النوم أميالاً كثيرة، كان فيها السُهاد ضيفه الوحيد الذي زارَ عينيه ولم يرحل.

وذات غفوة قاهرة، كانت فيها سبابته ماتزال تنتظر الأمر من عينه حتى يضغط على الزناد، سقطت أجفانه من التعب، في بحر من الأوهام، ساحبة روحه معها، راحت فيها الكوابيس تغزو فكره، ليستيقظ فجأة على صوت رصاصة، أتتْهُ من مكان لا يعلم من أين؟ تبغي روحه قبل جسده، ليتراجع من هول الصدمة، ويسند ظهره إلى الحائط، ها هو الآن قد أصبح الفريسة لهذا الداعشيّ، بعد أن كان هو الصيّاد.

تسارعتْ دقات قلبه باضطراب، مع كل دقيقة تنقضي، راح يشعر فيها بأنّه قد دخل الفخ الناري الذي نصبه له هذا الداعشيّ فالمعركة الآن بينهما باتت تحمل طابعا شخصيا، وأنّ مسألة النصر في هذه المواجهة الفردية أصبحت متعلقة بالبقاء، فالغلبة اليوم لمن يبقى، والآخر يموت في حلبة الحياة هذه...

هاتفَ رفاقه المقاتلين من خلال اللاسلكي، يخبرهم فيها ألا يقتربوا منه، وإلا سيكون مصيره الموت على يد ذلك الداعشيّ وأن يتركوه لوحده في هذه المواجهة العصيبة والمريرة، حينها قام بتغيير مكانه لأنه بات مكشوفا للطرف الآخر، ولكنه كان ما يزال في البرج نفسه، معتمدا في ذلك على كثرة المنافذ التي تملأ سور الخزان العالي بفعل تلقيها الرصاص، لتبدأ عملية بحث جديدة عنه، هنا تفتّق ذهنه عن خطة قد تساعده في تخطي الموت، ويمنع هذا الصيّاد من الظفر بروحه، فخلع رداءه العسكري مموّهاً البندقية جيداً، واضعاً قبعته على

مقدمتها، وقد تدثّـرَ بشرشف قديم رغم حرارة الصيف، لأنه كان سيتحمّلُ كل شيء في سـبيل العثور على هذا القنّاص، فحرارة قلبه وتوتره، تجاوزت كل الدرجات، وإصراره على إيجاده، والعثور عليه، بات الهاجس الأكبر له، فهما الآن في مواجهة عادلة، لا يملكان فيها سوى الرصاص والصبر، في سباق مع الزمن، والسؤال هو لمنْ الغلبة في ذلك؟

وكصيّاد مخضرم يملك إحساسا لا يخيب، أطلق عدة رصاصات كإشارة منه للآخر حتى يعلم بوجوده، وإنه ما زال حياً ينتظره، في حين كان الآخر هو أيضـا قد بادله برصـاصـة على برجه، ليَفهمه أنّه هو أيضـا يعلم بوجوده، هنا صـدرت منه ابتسـامة، لأنه بذلك عرف مكانه، انتظر المغيب بلهفة، وترك بندقيته مكانها ونزل البرج بحذر شـديد، مسـتترا بظلام الليل، فقد كان يملك فرصة واحدة فقط كي يظفر به، وإلا فالموت من نصيبه.

جاب الأرجاء متخطياً رفاقه المقاتلين، يخبرهم بأن عودته ليسـت مضـمونة، ورغم معارضـة الكثيرين له بهذه المغامرة التي لا تُحمد عقباها، كان مصرّاً على خوضها، فالموت يحيط به من كل الجهات، وهو لن ينتظر الموت أن يأتيه، بل هو من سيذهب إليه.

دارَ حول المكان متجاوزاً الدمار الذي خلّفته القذائف، والأشـجار التي فقدتْ أغصانها والبيوت التي لم تتبقّ منها سوى الذكريات، وسور مدرسة كانت فيما قبل تحوي داخلها الأمل، متجهاً نحو تلك التلة المشرـفة على البلدة من الجنوب، سـار في أرجاء التلة بصـمت، كان فيها الحذر رداءه، والسـكون زاده، ليتّحدَ هو مع الليل في سواد...

جحور مختبئة بين جلاميد الصـــخور وشـــقوق جافة حفرت أخاديد النســـيان، كوجه عجوز عفا عنها الزمن، ليميّز الكوخ المتهالك من بعيد، ويدنو منه، ويجده، فقد كان هناك، جا علا من خراب الكوخ هذا، مأواه الأخير كثعلبٍ ماكر، ومنه كان يراقب برجه العالي ويقتنص كل شيء.

وكنسمة صيفية كان يقترب منه، ليتفاجأ هذا الداعشيّ بفوهة مسدس باردة تضـــغط على جمجمته الملوثة ويرفع رأســـه وينظر لعينيه الســـوداوين بعمق، وكأنه كان يتوقّعُ لقاءهما، كان هذا الداعشيّ ـ ينظف بندقيته القنّاصـــة بهدوء، ويملأ مخزن مسدسه بالرصاصات، وقبل أن ينطق بكلمة واحدة، كانت سبابة القنّاص الكردي أسرع من كلمته لتضغط على زناد مسدسه وتُنهي مأساة دامت ليومين.

كانت وجه هفال جوان آخر ما لمحته عين هذا القناص الداعشيّ قبل أن يقطع له تذكرة سفر إلى الجحيم، وأزيز رصاصته كان المفتاح لبابها.

بعد أن تقدّمت الكتيبة، ووصـــلت إلى مركزها المحدد، راحتْ تراقب تكوشين من محرسها عن كثب، كل من يخرج، ويدخل للحي، وتفتّشُ الجميع، كان عدد من المدنيين، يســـاعدون الدواعش في نقل أخبار المقاتلين، ونقل المتفجرات لهم، فكم من مرة، وجدوا معهم المتفجرات، كانت مخبأة تحت ثيابهم، وهواتفهم المحمولة كانت عبارة عن شـــبكات اســـتخباراتية، لرصـــد تحركات المقاتلين، والتحضـــير للهجوم عليهم، فمرّةً، عمدَ أحد المواطنين، الذين يمرون بجانب الحاجز، قد قام بتخبئة بعض المتفجرات، تحت ضرع نعجة، وحين تعرض للتفتيش، لم تســـفر هذه العملية عن شيء، فتركته يرحل بخرافه ونعجاته، وبعد فترة، سمعتْ صوت تفجير قوي، كان هذا المواطن الداعشي، قد

أخرج المتفجرات وحوّلها إلى لغم أرضي، أدى إلى تفجير عربة لوحدات حماية الشعب، فاستشهد على إثرها عدد من الرفاق، فتّشتْ مجموعة من كتيبتها البيوتَ لتبحثَ عنه، وجدته بعد فترة، وقد اختبأ في منزل آخر، حين اقتربت المجموعة منه، رمى الرصاص نحوها، لكنّ المقاتلين تمكّنوا منه، وأردوه قتيلا، وحين فتشوا المنزل، دخلوا غرفة فيها نافذة، وإذا بباب الغرفة قد زُرع فيه لغم، إذا تحرك الباب سينفجر كل شيء، توقفوا ليبحثوا عن حلّ يخرجهم من المأزق، وقتها أتتْ رصاصة من قناص أصابتْ رفيقا، كان في هذه المجموعة، واستشهد من فوره، عرفوا أنّ هذا القناص قد اتّخذَ من نافذة الغرفة نقطة محددة، كي يسدد عليهم رصاصاته الغادرة، انحنوا وتمددوا أرضا، حتى يحموا أنفسهم من الرصاص، أخبروا الرفاق عن هذه القناص بجهاز اللاسلكي، وتمكّنوا من إيجاده، أردوه قتيلا، وأعادوه إلى الجحيم، الذي ينتمي إليه هذا الداعشي ـ تمكنّوا من فكّ اللغم، والخروج سالمين، حاملين جسد رفيقهم الشهيد في وجل.

وتتالتْ الأيام صخبا وقوة، كانت الاشتباكات متقطعة، وطائرات التحالف تقصفهم حتى يتقدم الرفاق، ومع الأيام كانت تكوشين تسمع بطولات لمقاتلات كرديات، ذاعَ صيتهنّ كثيرا، وتناقل الناس أخبار أعمالهنّ البطولية، سمعتْ عن مقاتلات، اقتحمنَ صفوف مسلحيّ داعش، وفجّرتْ بهم ما تحمله من قنابل، وتفجّر نفسها بقنبلة في عملية استشهادية، أدّتْ إلى مقتل أكثر من عشرين داعشيا.

وعلمتْ عن مقاتلة في وحدات حماية المرأة، بعد أن نفذتْ ذخيرتها، أنها قرّرتْ أن تنتحر برصاصتها الأخيرة، حتى لا تقع أسيرة بيد المجرمين، وكم كانت تكوشين تضحك على تصرفات الأسرى من داعش حين يلقي المقاتلون

القبض عليهم، فقد كانت تصرفاتهم الغبية تدلُّ على مستوى الجهل الذي وصل إليه هذا الداعشي- مرة علمتْ تكوشين عن أسير داعشي- في السجن، أرادَ أن يشرب كأس ماء، وحين أُحضرَ له الماء، أخرجَ هذا الرجل مفتاحا كان في سلسلة في عنقه، ووضع المفتاح في كأس الماء، وراح يحرّكها، وبعد أن شربها، وقف وأراد أن يخرج من السجن، نادتْ عليه مقاتلةٌ أن يتوقفَ، حينها استدار الداعشي- نحوها و قال لها: هل ترينني؟ ساد جوّ من الضحك على هذا الغبي الذي ظنّ أنّ بمفتاح جنته يستطيع الاختفاء عن أعين البشر...

كان في المبنى الذي اتخذته المجموعة مسكنا ونقطة حراسة لها، يسكن فيه عجوز و زوجها المقعد، وطفلة صغيرة، كانت تكوشين ومنذ اليوم الأول لها في هذا المكان تُشعرهم دوما بالأمان، وكانت تمدهم بالطعام والماء دوما، وترعاهم وتهتم بصحتهم، حتى الدواء كانت تطلبها لأجلهم من كوباني، ولكنّها لاحظتْ في بعض الأوقات ذهاب السيدة العجوز إلى المطبخ، وتبقى لوقت طويل وتخرج مبتسمة، لحقتْ بها لتراقبها خلسة لتجدها تحضّرَ لغماً، وتضعه في صندوق كرتوني، حتى تخدع المقاتلين بعطفها وحنانها، في حين أن الحقد يملأ قلبها وقلب زوجها المقعد، لأنها كانت تظن أن المقاتلين والمقاتلات ستنصاعون لطيبتها، ونفتح الصندوق لتنفجر في وجوههم.

أخبرتْ تكوشين القائدة فيان بمخططها، واستطاعت أن تطرد العجوز وزوجها من المنزل وفكّ اللغم، حينها علمتْ وأيقنتْ أن داعش لم يكن له قدم في هذا الوطن لو لم تكن هناك حاضنة شعبية لأفكاره الهدامة، لقد قابلتْ العجوزُ كرمَ المقاتلين الكرد لها، واهتمام المقاتلين بها بكل كراهية، بعكس ما كانوا يتمنوه وأملوه.

كانت الكتيبة تجد الألغام في كل شيء، في الألعاب والزرع والحيوانات والثياب وأواني الطبخ وعلى أقفال الأبواب وتحت الأبواب والنوافذ، وفي الطرقات وحتى الهواء لم يسلم من أذاهم، فقد كان مقاتلو داعش يشعلون الكثير من الإطارات كي تختنق السماء بدخانها ويزداد الوضع اشتعالا ويملأ الهواء تلوثا، كانت حياة داعش بالمحصلة مجموعة أمراض امتلأ بها جسد الوطن، و كان لابدّ من تطهير الأرض من هذه الأمراض، وإعادة الحياة له.

كانت الألغام وسيلتهم الوحيدة في وقف تقدّم المقاتلين والمقاتلات، وقتل أكبر عدد منهم، وبفضل الرفاق المدربين على فكّ الألغام لكانت هذه الألغام قد نفذت مخططها في قتلهم، ففي كل مجموعة قتالية، كان هناك رفيق يحمل بيده أداة لكشف الألغام، ويسمى كاشف الألغام، كانت مهمة صعبة جدا، والرفيق الذي كانت مهمته حمل الجهاز، يتقدم المقاتلين دوما في كل مهمة يقومون بها، كانوا من أكثر الأشخاص المعرضين للموت في سبيل حماية الرفاق، لكنهم كانوا أقوياء وأشداء، ويحملون في قلوبهم حب الوطن وهذا ما زادهم شجاعة وعزما على الاستمرار في هذه المهمة الصعبة وتحمّل مشاقها، لقد كانت كتيبة الشهيدة روجدا بحقّ رمزاً للقوة والشجاعة، وكم تفتخر تكوشين بأنها ما زالت واحدة ممن ناضلن ضد العدو ضمن هذه الكتيبة.

كانت علاقتها بالرفيقة فيان والرفيقة روزالين، ليست علاقة رفاق السلاح وقائدة، بل تجمع بينهنّ علاقة محبة واحترام وأخوة، كانتا دوما تشجعانها على تحمّل أعباء العمل وحمل السلاح ويستشهدن على ذلك بذكر البطلات الكرديات اللواتي استشهدن في صفوف وحدات حماية الشعب والحزب، واللواتي حملن في قلوبهنّ راية الحرية، حرية المرأة .

ومن أشــد ما يدفعها بالفخر بنفســها أن أغلب الرفاق كانوا يظنون أنها ستهرب وستترك سلاحها، ولن تدافع عنهم إذا هجم العدو علينا، لأنهم رأوا فيها فتاة ضعيفة وصغيرة الحجم، تحمل سلاحا أثقل منها، لكنهم عندما وجدوها لا تتعب ولا تعرف للخوف منشأ ومكان في قلبها، زادت شجاعتها من دهشتهم، فأصبحت مع الرفيقة فيان رمز المرأة القوية التي لا تهاب الصعاب.

اليوم الرابع

غبار بطعم الدم، شفاه جفّتْ من الصدمة، طنين أُذنٍ لا يبرح الجمجمة، وأنين خافت يخفي خلفه الألم، اختلطت معها الصرـــخات، فقبل ذلك كانت تصرخ للفرح، والآن باتت صرخاتها الصامتة تختنق، لتفتحَ عينيها على الخراب، إنّه التفجير...

كانت قبل ذلك بساعات، قد صعدتْ درج سطح المنـــزل بتؤدة، حاملة بيمناها سلاحها الكلاشنكوف، بينما يدها اليسرى ما زالت حرة، تتمسّكُ أحيانا بحافة الدرج المُتهدّم في بعض أطرافه، لتتخطّاها بخطوات مزدوجة، حتى وصلت إلى سطح الدار، سارتْ باتجاه الحافة التي تحوّلتْ إلى محرسٍ لكتيبتها التي اســـتقرّتْ فيها قبل عدة أيام على أطراف مدينة منبج، بعد أن حرّرها مقاتلو وحدات حماية الشعب والمرأة، من عناصر تنظيم داعش.

كانت الشمس حينها في الغسق، تذوبُ خصلات شعرها الأشقر المجدول مع نهاياته، وتراقب بعينيها العســـليتين من بعيد تخومَ المدينة التي ما تزال تقاوم سرطانا مميتا محاولا بكل الطرق بســـط ســـيطرة خلاياه الجرثومية على أرجاء المدينة، فيختلط أزيز الرصـــاص وقذائف المدافع مع أصـــوات الطبيعة الحية.

لاحظتْ غروب الشـــمس مخلفة وراءها ذكريات بطعم الحنين، فاليوم هو عيد ميلادها الثامن عشرـــ ولا تريد أنْ تخبر أحداً من رفاقها في الكتيبة خجلا واســـتحياء، فكيف لها أن تتقبّل فكرة الاحتفال بعيد ميلادها، وهم

يعيشون لحظات حياتهم اليومية بكل شغف، متأملين بزوغ الشمس في اليوم التالي و هم أحياء؟

ولسببٍ ما تجهله، وشعور غريب لا تدري كنههُ، فقد طلبتْ من قائدة الكتيبة أن تستمرّ في المراقبة حتى بزوغ شمس النهار التالي، وأن تبقى في محرسها مدة اثنتا عشرة ساعة، بدلا من ست ساعات فقط، وهي مدة المناوبة الليلية المقررة لكلّ مقاتل ومقاتلة، في هذا المكان الموحش ذي الطابقين.

الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، كانت تكوشين تراقب فيها النجوم والسماء والأرض، وكل ما يتحرك من حولها، في سكون مريب، أنظارها تتجه نحو عدد من المقاتلات اللواتي استسلمنَ للنوم من شدة التعب والإرهاق البادي عليهنّ، تناجي الطبيعة أن ترأف بهنّ، وتمدّهنّ بالقوة والصبر في تحمّل هذه الأيام العصيبة التي تواجههنّ وتمنحهنّ الأمل، متمنية أن يرحل عنها ذلك الهاجس الذي تشعر به حين يدنو منها الموت، لتسري في جسدها قشعريرة الخوف من الوحدة.

بعد انقضاء مدة مناوبتها، كان فيها الصباح مشرقا، استلمتْ منها إحدى المقاتلات أمرَ الحراسة، بينما توجهّتْ لغرفتها لتأخذَ قسطاً من الراحة، غسلتْ وجهها ببعض الماء لتُعيدَ بعض الحيوية إليها، بعد ليلة مضنية من الترقّب، استلقتْ على فراشها مغمّضةَ العينين، آملةً بلحظات نوم هانئة تعوّضها عن ساعات الحراسة الطويلة، وما هي إلا دقائق كانت فيها تكوشين تمرّ في طريق النوم المضطرب، حتى تعالت الأصوات من جديد، رصاص و قذائف تنهال فجأة على النقطة العسكرية التي جعلت من المنزل محرساً لها، حينها حملت سلاحها وتوجّهتْ مع رفاقها المقاتلين والمقاتلات نحو السواتر الترابية والحواجز

الإســمنتية الأمامية للمبنى، كي يقوموا بصــدّ الهجوم الذي يقوم به عناصر من داعش والجماعات المتطرفة، ومن شـدة الضـغط الممارس عليهم نارياً من جهة الجماعات المســلحة، تراجعت تكوشــين مع رفاقها المقاتلين إلى داخل المبنى، وصــاروا يقذفونهم بالصــواريخ المحمولة على الكتف المضــادة للدبابات حتى أعطبوا واحدة ودمروا أخرى، وبعد مدة ليسـت بقصـيرة، توقفتْ الاشـتباكات، حينها نفضــت تكوشــين عن نفســها الغبار ونهضــت لتصرـخ على باقي رفاق سلاحها لتطمئن عليهم، عندها أتتهم قذيفة من جهة أخرى أردتْ مقاتلةً كانت تقف بجانب النافذة شــهيدةً، فتطايرت دماؤها لترشــق وجوههم، وعادت الاشــتباكات مرة أخرى لتصــيب مقاتلا آخر كان في أعلى البناء، وتســقطه من الأعلى شهيدا مضرّجاً بدمائه، ولم تشعر بوقع الصدمة المفاجئة حتى قام أحد الانتحاريين بتفجير نفسه، ليتهدّم الجدار فوق رؤوسهم.

كان الغبار كثيفا والرؤية معدومة، رفعتْ تكوشـين رأسـها كي تسـتنشـق بعض الهواء، آلمها ظهرها كثيرا في تلك اللحظة، فقط ســقطت الحجارة على ظهرها، وقد مسـك أحد المقاتلين رأسـه والدماء تسـيل من جبينه، كان الموقف مشوشا جدا، استعادتْ رشدها قليلا، لتجدَ أن هناك داعشيّ صغير، لم تنبت شــعيرات لحيته بعد، يقف متفاجئاً أمامها، عندما دخل الغرفة ظنّاً منه إنّ جميع من في الغرفة ماتوا، حينها رفع سلاحه في وجه تكوشين التي كانت تنظر هي أيضا نحوه، والتي لم تُمهله الوقت للتفكير، حتى أطلقتْ رصاصتها الأخيرة من بندقيتها لترديه قتيلا، وعيناه ما تزالان تنظران نحوها، فهي وســلاحها اليوم كانا كجســد واحد، ولم يتخلى عنها في أكثر لحظات حياتها شــدة، راحتْ بعدها تُزيح الحجارة والأتربة عن جســدها، لتقف على رأس هذا الانتحاري المجرم، وقالت له: لم أتحرّكْ من مكاني، مهما علا صـوت الرصـاص المُقترب منّي، صـامتة

كجبل جودي، ولا تظن أنّني كنتُ ســـأتركَ ترحلُ وابتســـامتك القذرة تعلنُ انتصارَك الغادر عليّ، كنت هنا بانتظارك حتى الرصاصة الأخيرة.

كَوني امرأة، هذا لا يعني أنني لا أجيد حمل السلاح، وطني الذي أحمله في صدري كقلبي، هو من يوجهني نحو الحرية...

ألتفتتْ تكو شين نحو رفاقها المقاتلين، فلاحظت ا ست شهاد رفيقين لها في تلك اللحظة، حاولت مســـاعدة الرفيقة روزالين على الوقوف، فقد كانت هي أيضا مصابة، جلستْ برهة بجنبها والصمت يغلف قلبيهما، فلم تجد كلّ منهما كـ لاما يعبّر عما في أجوافهنّ من غضـــب اللحظة العصـــيبة الراهنة، ســـوى بعض كلمات الاطمئنان على صحة بعـضهما بعـضاً، ا ستقامتْ الرفيقة روزالين وأولتها ظهرها، وصـــارت تســـير باتجاه الباب المؤدي إلى الســـاحة الخلفية للبناء، كي تســتطلع الطريق، لأنها لم تجدْ بُدّاً من الانســحاب حتى تســتطيع الحفاظ على الحياة، آملةً وصـــول الدعم العســـكري من كتيبة لقوات ســـوريا الديمقراطية فتساندهم، استدارتْ بعدها تكوشين نحو الرفيقة فيان، كانت هي أيضا مصابة بـ شظية في قدمها، أ سندتْ الرفيقةَ فيان على كتفها، و صارتا تـ سيران ببطء نحو الباب، تلقيتا لحظتها وابلاً من الرصاص لتُسقطهما أرضا، وتـصيب قدم الرفيقة فيان برصاص يزيدها ألما، وبفعل هذه الرصاصات ابتعدتْ تكوشين عن الرفيقة فيان قليلا، مدّدتْ يدها نحوها كي تستطيع سحبها فلم تقدر، رمتْ لها تكوشين بحبل كان موجودا على الأرض، مسـكتْ الرفيقة فيان بطرف الحبل واسـتطعت بـصعوبة جرّ ها نحوها، وقفتا مرة أخرى، وا ستندتْ على كتف تكو شين، و صارتا تســيران باتجاه الممرّ، ومن شــدة الإعياء والتعب والاصــابة التي تعرضــت لها تكوشـين في قدمها وظهرها نتيجة التفجير، سـقطتا معا مرة أخرى بين الأنقاض،

ومرة أخرى ابتعدتْا عن بعضهما بعضاً، وبصعوبة بالغة استطاعت تكوشين سحب الرفيقة فيان نحوها، بفضل سلك كهربائي للمولدة كان خلف البناء في الباحة الخلفية، جلستا أرضا وسندتْا ظهرهما للحائط الخلفي للبناء، حينها رأتْا الرفيقة روزالين تطلق ما تبقى معها من رصاص نحو عدد من عناصر من داعش، حتى فرغت بندقيتها من الرصاص، ولم يعد بمقدورها الاستمرار في المسير لأنها كانت مصابة والدماء تسيل منها، انحنت الرفيقة روزالين وصارت تسير خلف البناء ببطء شديد باتجاه سور المدرسة، لم تتعدى سور المدرسة بخطوات حتى ألقى عدد من الدواعش القبضَ عليها، وبمحاكمة سريعة قرروا إعدامها، كلّ ذلك وتكوشين تشاهدُ كيف أعدم داعش حياة الرفيقة روزالين بأن فلقوا رأسها نصفين بساطور كبير، وكأنّها أمام مشهدٍ لفلم رعب تعود أحداثه لفترة ما قبل الحضارة، جمدت الدماء في عروقها، حاولت المسير باتجاه آخر، لكن الرفيقة فيان لم تستطع الحركة، مما أجبرها أن تزحف معها بين الأنقاض حتى وصلتا تحت شجرة، اختبأتا قليلاً عن أعين الدواعش، الذين كانوا يبحثون بين الأنقاض عن الجرحى كي يردوهم قتلى برصاصات غدرهم، وكلما يتقدمون نحوهما تزدادان حزنا، ولكن تكوشين لم تضعف، فقامتْ بإخفاء رفيقتها المصابة تحت الحشائش جيدا، وأخبرتها أنها ستسير وحيدة نحو الخارج كي تطلب الدعم من الرفاق وتأتي لنجدتها، مسكتْ بيدها وطلبتْ منها ألاّ تتركها، لكن تكوشين حضنتها وأخبرتها أن تصبر وتصمت حتى تعود بسرعة، تركتها تحت الحشائش، وقلبها يتقطر دماً وألماً، على الرفيقة روزالين، وما آل لها حالها، تقدّمتْ عدة خطوات وحاولتْ المرور من خلف العدو الذي بات يقترب أكثر منها، ولكنها وجدتْ نفسها محاصرة من عدة جهات، مما أجبرها أن تقفز من خلف الجدار وتدخل غرفة بجانب الرفيقة فيان، كانت الغرفة صغيرة ومليئة

بالتبن والقش، لم تنتظر كثيرا، فقد اختبأتْ خلف أكياس القش، ورمتْ على نفسها التبن حتى تستطيع الاختباء، ولا يراها أحد، بينما كانت تسمع أنين الرفيقة فيان من خلف الجدار، بقيت في مكانها لعدة دقائق، ولم يقترب من الغرفة أحد، كانت أنفاسها متقطعة، وراح صدرها يضيق بفعل نقص الأوكسجين، حاولتْ أن تتمالك نفسها أكثر، ولكنها لم تستطعْ التحمّل، فانتابها نوبة سعال حادة، وعندما أخرجتْ وجهها قليلا من تحت التبن لتتنفّس، وجدتْ أحدهم يجلس بباب الغرفة، وقد أسند ظهره للحائط، كان ينظر لها دون أن يراها، وكأنّها لم تكنْ موجودة، تسمّرتْ في مكانها قليلا، فقد أدركتْ أنه لم يلاحظها، أزاحتْ التبن من فوق جسدها، وحين وقفت واستدارتْ، هنا كانت المفاجأة له، رمى نحوها رصاصات حقده لتصيبها في ظهرها، وتسقط تكوشين أرضا، نادى هذا الداعشي- على رفاقه المجرمين، أداروها على ظهرها، نظروا إلى وجهها كثيرا، كانوا يريدون أن يتأكدوا أنها ميتة، مسك أحدهم يدها وأراد أن يقيس ضغط دمها، فأسقطتْ تكوشين يدها أرضا، ركلها أحدهم على بطنها، كي يصدر منها أنين، و لكنّها هنا أيضا تظاهرت بالموت، ولم أصدر أي صوت، قام أحدهم بوضع قدمه على ركبة تكوشين اليمنى، كي يسحق عظامها تحت قدمه، لكنّها هنا أيضا لم تأتِ بصرخة أو أنين، اقترب أحدهم من فمها ليتحسّس تنفسّها، وهنا قامتْ تكوشين بوقف تنفسّها، في هذه اللحظة أيقنوا بموتها، ربطوا يديّها معاً وقيّدوا قدمها، ورموا بها جانب النافذة، رفع أحدهم جعبتها وقرأ اسمها عليها، لكنه لم يكن يعرف القراءة فأسماها نرجس، كانوا يأملون في أن تكون حية، كي يأسرونها ويستخلصوا منها على المعلومات التي تفضي لألقاء القبض على الرفاق الآخرين، لكنهم يأسوا منها وخرجوا، لتسمع أحدهم يخبر الآخر أن يجلب المجنزرة الكبيرة ذات التصفيح المعدني البسيط لوضع جثتها

وجثث عدد من رفاقها فيها، بكتْ تكوشين بصمت وسالت دموعها على خدها كثيرا، بكتْ لنفسها، وعلى الرفيقة فيان حين سمعتْ أحداً منهم يخبر قائده أنه ألقى القبض على مقاتلة تحت الشجرة بين الحشائش كانت مختبئة هناك، وأنه قتلها، لم تتمالك نفسها أكثر، و راحت تبكي بمرارة ...

كان ظهرها يؤلمها كثيرا بفعل الرصاص، وقدمها تنزف بشدة، ونيران الألم تثور في كل مكان من جسدها، تذكّرتْ في هذه اللحظات كل ما عشته، وما رأتْه منذ بداية انضمامها لوحدات حماية المرأة، حتى لحظة إصابتها هذه، تذكرت أمها وإخوتها، وكيف كانت أمها تبكي مشتاقةً لرؤيتها، كيف كانت تعدّ الطعام لها، وكيف كانت سندا لها وداعمة لاختيارها، تذكّرتْ إخوتها الصغار، وهم يركضون في ساحة البيت خلف الكرة، أو يلعبون ويتنقلون بين الغرف، تذكّرتْ بيتها الكبير الجميل الذي احتوى قلبها الصغير، ووالدها الذي زرع في قلبها بذور حب الوطن، فكيف سيستقبلون نبأ استشهادها والتحاقها بالرفاق الشهداء .

تذكّرت الرفيقة فيان وكيف استشهدت ودمها الطاهر مازال على يديها، تذكّرتْ جمالها الذي هزم بشاعة الإرهاب وحطّمَ أسطورتهم الخرافية، كانت ابتسامتها رسالة سلام للعالم، العالم الذي مازال بحاجة لمثل هؤلاء البطلات في حربه البشعة ضد الإرهاب.

كانت في حالة ضعف وتعب وإعياء شديد، مستسلمة لقدرها المحتوم، فلا يعرف أحد أنها مقيدة، وجريحة، ومختبئة في أحد الغرف، ولا أحد يعرف هل ما زالتْ على قيد الحياة، أو أسيرة، أو شهيدة، حتى تناهى إلى مسمعها أصوات بعض الرفاق آتيا من جهاز لاسلكي يبحثون عنها، وعن الرفيقة فيان،

سـمعتهم يقولون أن تكوشـين ليسـت موجودة، قد تكون أسـيرة أو شـهيدة، ولكنهم لم يجدوا جثتها حتى الآن، وحين سـمعتْ بخطواتهم تدنو منها نادتهم بأعلى صوتها :" أنا تكوشين قامشلو، أنا ما زلتُ حية".

كان الرفيق شرفان يريد أن يفتح جهاز اللاسـلكي كي يخبرهم بوجودها، وبأنّها ما زالت على قيد الحياة، لكن العناصر المسـلحة لم يمهله الوقت للحديث، حتى راح يطلق نحوه الرصاص، ومع اشـتداد الاشـتباكات بين الرفاق وبين العدو، هنا خرجت قذيفة آر بي جي من أحد الأماكن لتفجّر المجنزرة ويُبعد خطر الدواعش عنهم، ويبتعدون مرة أخرى جاريّين خلفهم ذيل الهزيمة، هنا حملها الرفاق برفق إلى سـيارة تويوتا بصـندوق خلفي، وضـعوها فيه، ودثّروها ببطانية، أرادوا أن يوصـلونها إلى كوباني، ونتيجة الدمار والخراب الحاصـل في منبج، كان من العسـير أن تسـير السـيارة بسرعة، لذلك كان على الرفاق أن ينقلونها إلى سـيارة أخرى كلما اقتربوا من حاجز، وفي الطريق كانوا يتحدثون إليها، ويشـدون بأزرها كي تصـبر وتتماسـك وتتحمّل الألم، وتتمالك نفسها كي تعود للحياة قوية، فكانت ابتسامتها التي ارتسمتْ على وجهها لحظة إسـعافها، لا تفارق وجهها، وهي تخبرهم أنها بخير وبصـحة جيدة، لا داعي للخوف عليها أكثر.

الفصل الثالث

لا تدري تكوشين، ما الذي جعلها تدندنُ بكلمات الأغاني، وهي في الصندوق الخلفي للسيارة، المُسرِعة باتجاه كوباني، تتخطّى بها هذه السيارةُ الأبنيةَ المتهدّمة، والشوارع المتكدّسة بجثثٍ متناثرة هنا وهناك على الأرصفة، أو في وسط الطريق، ومتجاوزة كل الحفر، التي خلّفتها تلك الصواريخ والقذائف، والتي جعلت من الطريق مضماراً لمتسابقي القفز على الحواجز، فتتجاوز بسرعتها كل النقاط العسكرية لوحدات حماية الشعب والمرأة، التي تحيط بالمدينة، وتمنع عناصر تنظيم داعش من الهجوم عليها من داخل المدينة، أو من خارجها، ومعلنة بأصوات أبواقها، فتح الطريق لمرور مقاتلة جريحة، تنزف دماء ممزوجة بالدموع، كانت تكوشين تغني بصوت مبحوح، وكأنها تريدُ أنْ تعودَ لطفولتها الأولى، فتتذكّرَ والدها الذي كان يحملها على كتفه، لتغنّي في احتفالات نوروز.

الساعة الآن قد تجاوزت الثانية عشرة ظهرا، والشمس وقتها في كبد السماء تزاحم بنورها كل شيء، وتبعث بشعاعها الوهاج للأرض التي ساد فيها الظلام قبل مدة فتنيره، وتحرق أجساد المجرمين بنارها، لتطهّر الأرض من رجسهم، معلنةً بنورها اقتراب ساعة النصر، فالطريق من منبج إلى كوباني قد يستغرق وقتا ليس بقليل حتى تصل السيارة بجسدها المكلوم إلى المشفى، ومع كل دقيقة كان صوت تكوشين يخبو، ومعها يزداد قلق الرفاق الذين يرافقونها في السيارة، فتترقرقُ الدموع في عيونهم، حين كانت تغني، ظنّاً منهم أنّها تلفظ أنفاسها الأخيرة، وستفارق الحياة في أية لحظة، لكنّ تكوشين، استمرّت بالغناء، رغم الألم، لترسلَ بكلماتها رسائل إلى والديها وإلى كل المقاتلين في الجبهات، ألّا تستسلموا لجبروتهم، واجعلوا من بنادقكم قلاعا وحصونا، تحميكم شرور الأعداء وتمنحكم القوة، فلا تتركوها وتمسّكوا بها، فنهاية الألم والظلام بات قاب

قوســـين أو أدنى، وإعلان تحرير منبج وكلّ أرض روج آفا قريب جدا، كانت تكوشــين تغفو تارة، وتارة أ خرى تفتح عينيها لتتمتم بكلمات مُبهمة، تتوه على شــفتيها الورديتين، وبينهما تظهر ابتســامتها الرقيقة جليّةً لتخبرهم أنها لا تبالي بالموت، فيا موت رفقا بروحها، ولا تنزعه من بدنها الجريح، فكل قطرة من دمائها قادرةٌ أنْ تحيي آلاف الأشـــجار بعد جفافها، لقد خاف مرافقوها عليها، وظنّوا أنّها ســتســتســلم للموت، وهم ما يزالون في الطريق للمشــفى، لفقدانها للدماء الكثيرة، لذلك كانوا يتحدثون إليها حتى لا تفقد وعيها، لكنّ القدر كان رحيما معها، و سمح لها أن تـصل للمـشفى بكامل وعيها، و سط هتاف المرفقين لها، وصراخهم لفتح الطريق أمام الممرضين للوصول بجسدها إلى غرفة الطوارئ، بعدها تمّ نقلها بســرــعة إلى غرفة العمليات التي كانت تنتظرها، ونجح الأطباء بوقف النزيف، وتضـــميد جراحها، لكنّهم عجزوا عن إجراء العمليّة الجراحيّة المناسبة لتحفظ حياتها، وتحمي أعضاءها من الضرر، لذلك قررّ الأطباء نقلها في اليوم التالي لمشفى الشهيد خبات في قامشلو، في تلك الليلة التي قضتها تكوشين في المـشفى بكوباني، كانت قد ا ستعادت وعيها قليلا، فتحت عينيها بتثاقلٍ كبير، وجالتْ بنظرها في الغرفة، تأمّلتْ شـــيئاً في الســـقف، لتتذكرَ ليلتها تلك التي نامتْ في المشفى أول مرة، حين أصيبتْ في منـطقة الهول، نظرتْ باتجاه الأجهزة الطبية التي تتفرّع منها أنابيب تحوي على محاليل طبية لتتصـــلَ بأوردتها، وتسرــي هذه المحاليل والأدوية في دمائها، وكأنّها شـــجيرة قد نمتْ وتمدّدَتْ أغصانها وأوراقها، لتعترشَ الحائط، تعلّقتْ عيناها بنافذة غرفتها التي تطلّ على مدينة كوباني لتتأملها، المدينةُ التي خرجتْ منتصرــةً من معركتها ضـــد داعش، بعد أكثر من أربعة أشـــهر من المقاومة، وعاد الهدوء والســـلام إلى شـــوارعها، وتمكنّ مقاتلو الكرد من وحدات حماية الشعب والمرأة من طرد إرهابيي تنظيم

داعش منها، الذين عاثوا خراباً في شـــمال ســـوريا، لكنّ هذه المدينة الجميلة المُحرّرة كانت تعاني دماراً كبيرا، نظرتْ تكوشـــين من خلال النافذة إلى الأبنية المنهارة، ورفعتْ رأســـها لترى رايتي وحدات حماية الشـــعب والمرأة ترفرفان بـ شموخ فوق (تلة م شتى نور)، لت سقط حينها قطراتُ مطرٍ من غيمة صيفية عابرة تداعبُ زجاجَ نافذتها بلط ف، لحظاتٌ هادئة، وتتسلّلُ معها الذكريات إلى ذهن تكو شين الحزينة والجريحة، صحيح أنّها لا ت شعر بالألم الج سدي بف ضل الأدوية المهدّئة التي تســـير في دمائها، ولكنّ ذكرياتها الحزينة هي ما كانت تؤلمها، وتمنعها من النوم والاســـترخاء، وانتابتها فجأةً رجفة بردٍ تخلّلتْ عظامها الضعيفة، وراحت ذكرياتها في معركتها الأخيرة تنهمر كما المطر، فأجهشتْ ببكاء صامت، أشاحتْ بوجهها عن النافذة لتستعيدَ مخيّلتها ذلك المشهد البشع الذي صـــعقَ كل شيء في روحها، وتركها تخرس لهولِ ما رأتْهُ، فكيف لها أن تنسى ما شـــهدته بأمّ عينيها؟ وترفض قبول الحقي قة المُرّة، أو تتناسى فكرة فقدانها لمن تعلّقتْ بهم؟ أو أن تُجبرَ ذاكرتها على محوِ ما عاشـــته من لحظات متفاوتة بين خوف وحزن؟ كان ذلك حين فلقَ ذلك المجرم رأسَ الرفيقة روزالين بســـاطورٍ، وسرتْ القشـــعريرة أعلى عمود ها الفقري حين تذكرت الرفيقة فيان عند ما مسكتْ يدها مطالبة إيّاها بعدم الابتعاد عنها، والعودة إليها بسرعة مع الرفاق لنجدتها، لكنّ تكوشـــين أخلفتْ بوعدها، ولم تعدْ، كان أنينها ما يزال يعنّ على ذاكرتها الهشّـــة، والمحطمة بفعل مطرقة الألم، كوحشٍ ينهشُ قلبها المضـــطرب، أغمضـــتْ تكوشـــين عينيها على دموع منهمرة، لتخطَّ على وجنتيها الورديتين سطور الوهن، فالأدوية المخدّرة والمهدّئة لا تقدر أنْ تخفّفَ من وجعِ الذكريات المتهالكة، تا هتْ في مخيلتها مرة أخرى، و عادتْ لتنام لتجده واقفا ببابها، ويحدّقُ بها، إنه عمّها علي" الشـهيد علي" الذي اسـتشـهد في بداية الأحداث في

حمص، حين كان يخدمُ مُكرهاً في الجيش العربي السوري عام 2011، يتقدّم نحوها ليمرّرَ أصابعه بين شعرها، ويطبع قبلة حارة على جبينها المتعرّق، ويطلب منها أن تستيقظ فلا وقت للنوم فيقول لها: إنّ كلّ الرفاق والأهل بانتظار عودتك سالمة، فحربك لم تنتهِ بعد، وقضيتك التي من أجلها حملتِ السلاح، ما زالت بحاجة إليك.

خاطبته بقلبها، لتخرج كلماتها حشرجاتٍ مبللة بدموعها فتجيبه: هل تريدني أنْ أخذلَ رفيقتاي روزالين وفيان كما خذلتهما أول مرة؟ ولم أعد لأساعدهما؟ دعني يا عمي العزيز انضمّ إليهما، فقد اشتقتُ لهما، إنّي اتضرّعُ إليك يا عمي أن تتركني أرحل عن هذا العالم المليء بالآلام والدماء.

فتحتْ تكوشين عينيها صباحا على شعاع شمس يداعب جفنيها المتعبتين، فتتغزّل بهما، آتية من تلك النافذة التي منحتها أملاً جديدا بالحياة اليوم، واستيقظت على حركة غير اعتيادية في غرفتها، كانت الممرضات يحضّرنَها لعملية نقلها من مشفى كوباني إلى مشفى الشهيد خبات في قامشلو، وكانت سيارة الإسعاف تنتظرها لتأخذها إلى مدينتها الجميلة، أوصلوا جسدها بأجهزة طبية، تتفرّعُ منها الأنابيب التي تحوي على المحاليل الطبية، وكأنّ تكوشين نبتةٌ تتفرّعُ منها الأغصان، كانت هذه الأجهزة تومض حينا وتخفتْ حينا آخر في تواتر مستمر، وتصدر أصواتاً كدقات قلبها الصغير، وكلما كانت سيارة الإسعاف تتجاوز مدينة ما، كانت تكوشين تزداد اشتياقا، ويزداد معها شعورها بالوحدة لفراقها كتيبتها ورفاق السلاح.

وأخيرا تجاوزتْ سيارة الإسعاف حاجز(هيمو)، لتدخل معها تكوشين مدينة قامشلو، وتسير السيارة بجانب حيّها (الهلالية) بتلّتِها المرتفعة، وخزان

الماء الذي ينتصب فوقها علمًا وحدات حماية الشعب والمرأة، شامخة تنتظر فجر الحرية، وانتصارا لدماء شهدائها، وناظرة لمستقبل مشرق.

استقبلها أطباء مشفى الشهيد خبات باهتمام كبير، فقد علموا صعوبة وضعها الصحي، وبضرورة إجراء عمل جراحي ينقذ حياتها، ويمنع أعضاءها الحيوية من الشلل، فبينما تركتْ تكوشين جسدها تحت رحمة مبضع الجرّاح، كان جرح قلبها مازال ينبض دما وذكريات، فلا يعرف أحد مدى حزنها على رفاقها الشهداء في ذلك اليوم، وكيف ألقى العدو القبضَ على الرفيقة فيان الجريحة وقتلوها، ومنظر فلقِ رأس الرفيقة روزالين لا تفارق مخيلتها رغمَ أنّها كانت تحت تأثير المخدر العام لجسدها، استمرّتْ العملية الجراحية لساعات، فإصابتها خطيرة، وظهرها تلقى رصاصة جاورَ عمودها الفقري في المنطقة القطنية، لتخرج من الجهة الاخرى، وتصيب هذه الرصاصة جزءاً من أعصابها بالتلف، لذلك عمد الأطباء إلى تنظيف الجروح، وترميم ما أتلفته الرصاصة الغادرة، وطالبوها المكوث في المشفى لتتلقى العلاج الفيزيائي اللازم...

في هذه الأثناء كان أهلها لا يعرفون شيئا عنها لمدة يومين متتاليتين، وانقطعتْ أخبارها عنهم، مما زاد قلق والديها، لأنهم كانوا يتواصلون معها يومياً، لتطمئنهم عن نفسها وعن باقي الرفاق، ففي مساء تلك الليلة، استيقظ الأب بعد منتصف الليل قلقا، والأرق الشديد الذي أصابه لانقطاع أخبار ابنته تكوشين منعته من النوم، تنبّه لصوت سيارة إسعاف يأتي من بعيد، ليكسرَ هذا الصوت هدوءَ الليل، ويهدّد سكونه بالموت الرحيم، توسّلَ الأبُ إلى الله في خشوعٍ، داعياً بأنْ يحفظَ اللهُ ابنتَه المقاتلة الشجاعة من الأذى، ويحمي كل المقاتلين والمقاتلات معها، واستسلم للنوم بعد الفجر، وفي الصباح استيقظ

متوجها إلى عمله، فقد أوكلتْ له مهمة التوجّه إلى إحدى القرى ليستطلع أمراً ما، ولشدة توتره، وتفكيره بابنته، نسي أنْ يشحن بطارية جواله، وحين أنهى عمله في القرية، عاد إلى بيته بعد فترة الظهيرة، وفي الطريق توقّف ليمرّ ببيت أخيه الذي عاد مصابا هو أيضا من منبج قبل عدة أيام، كي يسأله عن أيّ خبرٍ أو معلومةٍ، تثلج قلبه المضطرب عن ابنته تكوشين؟ لكنّ أخاه نفى أنّه قد تلقى أيّ معلومةٍ تخصّ تكوشين، ثم عاد لبيته ماراً بمحلٍ لبيع أجهزة الاتصالات الحديثة ومستلزماتها، والتي كانت مصفوفة بترتيب على واجهة المحل الزجاجية، ليشتري شاحنا جديدا لهاتفه المحمول، وراح يشحنه في المحل، عساهُ أنْ يتلقّى اتصالاً، تمنح قلبه الحزين شعاعاً من الأمل، ويبشّره بسلامة ابنته، حينها وبعد دقائق من إعادة هاتفه للحياة، أهتزّ الجوال بيده فجأة، مُعلناً برنينه المتواتر عن تلقّيه اتصالاً من رقم غريب، ليس من قائمة أصدقائه، ضغطَ بأصبعه على زرّ قبول الاتصال، وصمتَ للحظات لا يقدر على قول كلمة (ألو)، خوفٌ مجبول مع الرجاء، وممزوجة بقطرات من الأمل، هذا كان حاله حين وضع الهاتف بالقرب من أذنه، حينها حدّثتهُ الممرضة في مشفى الشهيد خبات بصوتها الرقيق، لتعلمه بوجود ابنته تكوشين في المشفى، وأنّها بحاجة لرؤيته ورؤية أمها وإخوتها، وهي بصحة جيدة بعد نجاح العملية.

لم يتمالك الأب نفسه، ليتوّجه إلى البيت بخطواته المتسارعة التي توحي بعظمة الموقف وبجلالة الحدث، وكأنّه في سباق مع الزمن، حتى أنّه لم يستطع أن يجيب على أسئلة من كان يمرّ بجانبهم عن سبب هرولته المتفاجئة، ليدخل البيت ويخبر زوجته التي كانت تعلم بحدوث أمر ما لابنتها، فقلب الأم لا يخطئ، وبدون تأخير حملتْ الأم في حقيبة بعض ثيابها، وراحتْ تلحق بزوجها الذي يطالبها بالإسراع، فقد نفذ صبره من الانتظار، ركبا سيارة أجرة متجهَين

نحو مشفى الشهيد خبات، دخلوا المشفى وبعد أن استفسروا عن رقم غرفتها، هرعوا إليها متجاوزين درجات الطابق الثاني بلهفة بالغة، فلم تتمالكْ هذه العائلة نفسها، وكأنّ الأرض تميدُ من تحتهم، حين وقفوا أمام باب غرفتها، متوجّسين من أن يفتحوه، لقد كانت غرفة تكوشين غارقة في السكون حين أطلّت الأم برأسها ا داخل الغرفة بلا حس، ودخلتْ إليها بهدوء، لتجدها غارقة في النوم، وضعتْ يدها المرتعشة على جبين ابنتها، ومكثتْ بجوارها مشوشة الأفكار، بينما تنهمر الدموع من عينيها، لمستْ يدها وقبّلتها، ولثمتْ وجهها الصغير، وبيديها تحضنها، خالجَ قلب أمها أمواج متلاطمة من الفرح العارم للقاء تكوشين، والحزن العميق لما تعرضت له من إصابة والألم المرافق لها، بينما ترتسم ابتسامة الرضى برؤيتها على وجه الأب بين الدموع المنهمرة من عينيه الحمراوين، في لوحة يعجز أكبر الفنانين عن رسمها، فتحتْ تكوشين عينيها بتثاقل لتتلاقى كل الأعين معاً، نظرتْ إلى والدها في خجل، لأنّها لم تُردْ أنْ يراها والدها في هذه الحالة المرضيّة، لكنها استعادتْ ثقتها بنفسها حين أقبلَ عليها يحضنها بشوق شديد، فكان ذلك اللقاء هو الشيء الوحيد الذي لملمَ مشاعر هذه العائلة بعد طول انتظار وترقّب.

وبعد الاطمئنان على صحتها، أعلمهم الطبيب المتابع لحالتها أنّ تكوشين بحاجة إلى اهتمام ورعاية خاصة، وأنّهم أمام امتحان صعب ستعيشه تكوشين يوميا، فعليهم أن يتعلموا كيف يتعايشون مع وضع تكوشين الصحي الذي يتطلب متابعة مستمرة ومعالجة فيزيائية ستخضع لها بعد فترة، حتى تعود كما كانت، وتُبعد شبح الشلل عن جسدها النحيل، فقد عانتْ تكوشين كثيرا حين بدأت بالتمرين الأول في التدليك، حتى تعود أعصابها للعمل، صحيح أن الأطباء نجحوا في تضميد جراحها، ووقف النزيف، ولكنهم عجزوا عن وقف

سـيل الشـلل نحو جسـدها، وبفضـل العلاج الفيزيائي، أصـبحت تحرّك قدمها اليسرى، بينما قد مها اليمنى التي تعرّضتْ للرصاص وللشظايا، قد أصابها شلل، وباتتْ تتكئ على العكاز حتى تسـتطيع الوقوف أو السـير قليلا، وإنّ فقدانها للدماء الكثيرة إثرَ إصـابتها في المعركة، كان له بالغ التأثير على صـحتها، وعلى نجاح العملية التي أجريت لها، وتطلّبّ الأمر من الأطباء نقل كمية كبيرة من الدماء إلى جسـدها الجريح، وهذا ما منعهم من تتمة العملية على أكمل وجه ...

لقد علمتْ من والديها حين كانت في المشـفى، أنّ عمّها هو أيضـا قد أصـيبَ في معركة تحرير منبج، وهو الآن في قامشـلو، عمها الذي تحبّهُ كثيرا، وتعتزّ به كمقاتل شـجاع قد تعرّضَ للإصـابة كونه وقعَ هو وعدد من رفاقه في كمين مزدوج، فعند ما كان يسـير، هو ورفاقه المقاتلين، في إحدى الأحياء يشـمّطونها، ويقاتلون بقوة وشراسـة هذا العدو المجرم، دخلوا شـارعا طويلا، فبدأت الرصاصات تنهال عليهم كالمطر، من طرفي الشارع، بينما هم في الوسط، وكأنّهم في كماشة حديدية، انقسمت مجموعته إلى نصفين، لتقف كل مجموعة بجانب الجدار، كان عمها يرمي العدو من جهة اليمين، بينما رفاقه يرمونهم من جهة اليسـار، وتعالى صـوت الرصـاص واشـتدتْ حدة المعركة، حتى أصـيب عمها برصـاصـة في صـدره، وقتها أتتْ طائرة للتحالف لتقصـف العدو، وتفسـح المجال للمقاتلين، ومن بينهم عمها، للخروج سـالمين أحياء من الكمين، ولكنّهم خرجوا بجراح وإصـابات خطيرة، صـارتْ تذكّرهم بتاريخ ذلك اليوم وببطولات رفاق السلاح .

لمْ تنتظرْ كثيرا حتى وقف عمّها بباب غرفتها في المشـــفى بعد عدة أيام، ليحضـــنها ويقبّلها على جبينها، هنّأها عمها على روح البطولة التي امتلكتْها في قلبها، لأنها عاشتْ في تلك الأيام أصعب لحظات حياتها، ورغمَ ذلك لم تهرب أو تســتســلم للعدو، بل صـبرتْ ودافعتْ عن رفاقها في المعركة بما أوتيتْ من قوة وعزم وإرادة.

مكثتْ تكوشـــين طويلا في المشـــفى، ترافقها أمها كل تلك المدة، كانت تسهر على راحتها وتساندها، وتعوّضُ عنها ما فاتها من حنان، وكأنها وُلدتْ من جديد، كانت أمها تغفو أحيانا على الكرسي تعبةً ومنهكة، بينما تبقى تكوشـــين ســـاهرة تتابع من هاتفها الجوال أخبار رفاق ســـلاحها في الكتيبة، تســـمع عن تقدّمهم في منبج، وقرب إعلان انتصـــارهم على داعش، وتحرير المدينة من رجسهم، هكذا كانت تكوشين، مشغولة التفكير برفاقها ودائمة السؤال عنهم، قلبها معهم، بينما جســـدها المريض الراقد على سرير أبيض، والمقيّد بهذه المحاليل والأدوية يرفضُ أن يتركها ترحل لتلحقَ بمن أحبتهم وتعلّقتْ بهم، تنظرَ لقدميها المشـــلولتين وتتأسّـف على تلك الأيام، وتذكّرتْ ذلك اليوم الذي قادتْ فيه لأول مرة دراجة هوائية، ســـعيدة ومسرـــورة، حين كانت في إحدى القرى المحررة، وجدتْ الدراجة الهوائية ترقد بســـلام في ركنٍ مهجور، تنتظر وحيدة ذلك الشـــخص الذي يعيدها للحياة، فما كان من تكوشـــين إلّا أن امتطتْ ظهر تلك الدراجة، وتســـير بها بين البيوت، فتركض خلفها إحدى رفيقاتها تطالبها بحقها أن تقود مثلها الدراجة، لتستعيدَ تكوشين جزءاً من أحلام طفولتها التي قضته في الحي، خجلةً من تلك الأيام التي كانت فيها تخاف من أن يراها الناس وهي تقود دراجة ككل أقرانها الذكور، لقد تعلمّتْ معنى الحرية كما عاشـــته عندما التحقتْ بوحدات حماية المرأة، وها هي تكوشـــين اليوم تتعرّض للعديد

من الفحوصـــات الطبية، وتســـاندها أمها في ذلك، حتى تبدأ بالعلاج الفيزيائي الذي بموجبه ا ستطاعت أن تمـشي وتحرّك قدمها اليـسرى، لكن قدمها اليمنى ما تزال ترفض العودة لمهمتها ا لطبيعية، بل أصّرتْ على البقاء مشلولة، تأبى الحركة، وصارتْ تتكئُ على العكاز الذي أصبح قدمها الثالثة في مسيرها، مرة أخرى رأتْ نفســها في المنام تســيرُ في نفق معتم طويل، حاولتْ أنْ تتحسّــس طريقها وما يحيط بها، ولكنّها لم تلمس ســـوى الجدار، وهو يضـــيق عليها أكثر وأكثر حتى ضاق على صدرها، وصارتْ تسعلُ بشدة، المكانُ مظلمٌ والهواءَ معدوم والرؤية صـعبة، كأنّه القبر، سـمعتْ صـدى اسـمها يناديها من بعيد، حاولتْ أنْ تنهض لتـسير باتجاه الـضوء، فلم تـسعفها قدمها هذه المرة أيـضا في الـسير، فأ صبحتْ تحبو على ركبتها، حتى لمســتْ الكوّة التي يصــدر منه الضــوء، دفعتْ بيديها درفتي هذه الكوة للخارج كنافذة صــغيرة، لتأتيها منها نســمات عليلة، وتلمح وجهها يظهر فجأة في النور الصــادر في نهاية الدهليز، حينها لم تتفاجأ من رؤية وجهها، بل أصـبحتْ تسـتنشـق الهواء بقوة حتى عادت لها الحياة من جديد، لمســتْ وجهها الجميل بيـدها، رأتْ عينيها الجميلتين تنظران إليّها في حنان، في اشتياق لم تعهده روحها، فقد كانتْ بانتظارها منذ زمن.

كان وجه الرفيقة فيان يخرج مع الضــوء، ويتخلّلُ روحها حتى يجتازها كالنسيم، بدأتْ أنفاسها تنتظمُ رويداً رويداً، حتى وقفتْ على قدمها من جديد، رأتْ نفسـها بلا أوجاع ولا آلام، قدمها الذي كان قبل لحظات يأبى الوقوف، الآن هي سـليمة معافاة، وظهرها الذي كان مشـدودا بأحزمة طبية، بات هو أيضـا حرّا، لتـسيرَ مرحة باتجاه وجهها الملائكي، حتى و صلتْ إليها، ح ضنتْ ح ضورها الماثل أمامها كضياء القمر، وراحتْا تبتسمان في نشوة وحبور....

تكرّرتْ زيارات تكوشـــين إلى مراكز العلاج الفيزيائي، بعد أنْ أُجريتْ لها عمليّة جراحيّة أخرى في محاولة لتصحيح مسار الأعصاب والأوتار التي تضرّرتْ بفعل الإصـابة، حتى وجدتْ نفسـها تصـبحُ مداومة شـبه يومية للمركز، تتابع حالات المقاتلين والمقاتلات الجرحى، وتطمئنَّ عليهم كلّ حين، كانت إصـــاباتهم متفاوتة بين أطراف مبتورة بفعل الألغام، وبين جروح لا تُدمل، وحتى تبقى تكوشين محافظة على نشاطها، ولا تسمح لليأس أن يدمّر حياتها بإعاقتها هذه، قرّرتْ أن تتابع دراســتها للغة الكردية والأدب الكردي، فتكون معركتها القادمة في ســـاحة الأدب الكردي والتعليم، وتقدّم خدمة تطوعيّة للمقاتلين المصـــابين علّها تعوّض عنهم ما فاتهم من تعليم، وهنا أيضـــا تلقّتْ تكوشـــين الدعم من والديها، ومن الرفيقات اللواتي شجّعنها لمواصلة نضالها في الحياة، فمعركة القلم والفكر لا تقلّ شأناً من معركة السلاح.

في بادئ الأمر كانت عودتها للدراسة وحمل الكتاب والدفتر أمراً صعباً، ليس من الناحية الجسـدية، فإعاقتها لن تمنعنها من مواصـلة حلمها، بل تكمن الصـعوبة في حفظ واسـتذكار ما سـتحفظه من دروس لغوية وأبيات شـعرية وأساليب أدبية كردية، كونها ابتعدتْ عن الدراسة فترة طويلة، بادرتْ التسجيل في معهدِ لتعليم اللغة الكردية في قامشـــلو، لقد كان المعهدُ عبارة عن شـــقة متوسطة المساحة، مكوّنة من غرفتين صفيّتين، وصالة كبيرة تحوّلتْ إلى مكتبة تضـــمّ عددا من الكتب والمراجع والمعاجم اللغوية الكردية، في كل غرفة طاولة خشبية مستطيلة الشكل وتحيط بها ستة كراسي بلاستيكية ملونة، ولوح فيبر أبيض كبير يتوســط الحائط، وعدد من الأقلام الملونة، ومكتبة صــغيرة في زاوية الغرفة لوضع الكرّاسات، والكتب التعليمية عليها.

اســتقبلتها المعلمةُ بترحيب حارٍ وتبادلتا الحديث قليلا، كانت تكوشــين قد أخبرتها عن حالها وعن و ضعها ال صحي، وعن الإ صابة التي تعرّ ضتْ لها في حملة تحرير منبج، استمعتْ لها المعلمةُ بكلّ جوارحها، بعدها أصبحتْ تحدّثها عن نفسـها، كانتْ تكوشـين تجدُ المعلمةَ رغم الصـعاب التي مرّت بها والأهوال التي صــادفتها، امرأةً قوية، لم تســتســلم لليأس وللحزن، حدّثتْها عن الاجتياح العســكري الهمجي والجماعات المســلحة المدعومة من تركيا لمدينتها الجميلة عفرين، عفرين هذه المدينة الوادعة التي كانت بمثابة جنة للنازحين و الفارين من الحرب، باتتْ الآن بقعةً ملتهبةً من النار، تحرقها الطائرات الحربية التركية بصواريخ الحقد وبقذائف الكره، وترمي جام غضبها على الأحياء والمشافي وعلى المـدنيين، فتقتـل المئـات وتـدفع الآلاف من مواطنيهـا الكرد بـالهجرة، ليتركوا خلفهم أرضــهم وتاريخهم وأشــجار زيتونهم، ولتكون ممتلكاتهم وأشــياءهم عرضةً للنهب والسرقة، وكانت هذه المعلمةُ مع الذين اضطروا الرحيلَ، ليسيروا في مواكب طويلة من السـيارات، هرباً من همجية العدوان التركي، حتى وصـلوا إلى مخيمات النزوح في مدينة الشــهباء القريبة من حلب، وتعيش فيها لأيام، وبعدها نزحت وأهلها إلى مدينة قامشلو، لتستقرّ أخيرا فيها، ولكنّ قلبها ما زال معلّقا بعفرين وقراها ومياهها وأشــجارها، فعادتْ لتمارسَ مهنتها الجميلة المحببة إلى نفســها، وهو تعليم اللغة الكردية، فقد كانت معلمة اللغة الكردية في مقاطعة عفرين، وتمارس عملها بشغف وحبّ، حتى أتى الجيش التركي ليحتّل بجنوده ومرتزقته مدينتها، ويدمّروا البيوت ويقصـفوا القرى ويسرـقوا وينهبوا، كل ذ لك ما زال ماثلا أ مام عينيـها البنيتين، ولا تـفارق ذكرى احتلال عفرين مخيلتها أبدا، كانت تتمتّع المعلمة روجين(ماموســتا روجين) بحسّ الفكاهة والمرح رغم المآسي التي عاشــتها. وجهها يزرع الطمأنينة في قلب كل من يراها

فيشـعر المرء بالحب والطيبة حين يلمح عينيها، وهذا ما زاد ثقة تكوشـين بها، وأحسّها بالمحبة والاحترام لها، كان شعرها الأسود الطويل يصل لأسفل ظهرها، تتخللّه بعض الخصـلات بيضـاء اللون، فيوحي بجمال كردي يعود بتاريخه إلى مئات وآلاف السـنين، كانت متوسـطة الطول، بشرـتها الحنطية تُنبئُ بعشـقها لوطنها، وارتباطها بتراب عفرين، كانت كشـجرة زيتون عفرينية، جذورها في الأرض، وأغصانها تمتدّ إلى قامشلو، لم تشعرْ تكوشين معها بالوحدة، ولم تشعر هي أبدا بالغربة، كانت بحقّ امرأة شجاعة...

وبما أنّ تكوشين كانتْ قد اجتازتْ المرحلة الأولى في تعليم اللغة الكردية عندما كانت تتلقى التدريب في كتيبة الشـهيدة نوال، فلم يسـتلزم الأمر كثيرا من(ما موسـتا روجين) أنْ تنتقل لتعليمها اللغة الكردية من المسـتوى الأول إلى المسـتوى الثاني مدة طويلة، فقد باشرتْ (ماموسـتا روجين) وبعد شـهر واحد فقط، أن تبدأ بتعلمها قواعد اللغة الكردية مباشرة، وهذا ما شـجّعها كي تُقبل على الدراسـة بحماسـة أكثر، وتبدأ بحفظ الأبيات الشـعرية، وعدد من نصـوص الأدب الكردي، القديمة منها والحديثة، كأشـعار جكرخوين، وأحمد خاني، و الملّا الجزيري، و فقه طيران وغيرهم الكثير من شعراء وأدباء الكرد .

كان أسـلوب ماموسـتا روجين التعليمي جميلا وسـلسـاً جدا، جعلتْ تكوشين تعشق لغتها وتراثها وأدبها الكردي من خلالها، وهذا ما شجّع طالبات هذا المعهد أن ينظّمنَ أمسـيات شـعرية وأدبية باللغة الكردية، وأن تكتب كل واحدة منهنّ ما يجول في خواطرهنّ من أفكار وأشـعار، هذا ما جعلَ تكوشـين أنْ تحلم بأنْ تكون مثلها معلمة اللغة الكردية، نعم وما الضـير من ذلك؟ هل لأنّها معاقة جسـديا؟ لن تسـمح لإعاقتها أن توقفها عن حلمها، تمنعها من

العيش بحرية، لن الشـــلل فرصـــة للانتصـــار عليها، أو أنْ يعرقل طريقها نحو المســـتقبل، ســـتجتاز بلغتها الكردية كل الحواجز التي ســـتقف في طريقها، وستحقق حلمها عمّا قريب، هذا ما كانت تفكر فيه ذلك اليوم...

أخبرتْ تكوشـــين ماموســـتا روجين بما كانت تفكر به، وما يجول في خاطرتها، بأنْ تكون معلمة لغة كردية، وتتطوّع لتعليم اللغة للمقاتلين المصابين في معارك تحرير روج آفا، والتي أقعدتهم إصـــابتهم عن ممارســـة حياتهم الطبيعية، أعلمتْها ماموســـتا روجين بأنّ عليها أنْ تجتاز أولا مراحل تعليم اللغة الكر دية في هذا المعهد الثلاث، حتى تؤهلّها أن تسـجّل في لجنة التربية والتعليم في المجتمع الديمقراطي التابع للإدارة الذاتية في مقاطعة قامشـــلو KPC-Demokrati ، حتى يتمّ امتحانها في عدد من الاختبارات اللغو ية في اللغة الكردية وقواعدها و أدبياتها، ومن بعدها ســـيتمّ قبولها، وتُكمل دراســـتها، لتكون معلّمة اللغة الكردية، وتنال شـــهادة من هيئة التربية والتعليم التابع للإدارة الذاتية، تؤهلّها لممارسة هذه المهنة الجميلة .

كان لحديثها عن المراحل التي ستمرّ بها تكو شين في م سيرتها التعليمية حتى ت صل لهدفها بالغ التأثير في شخ صيتها، وهذا ما دفعها أن تجتهد أكثر في تعلّم اللغة الكرد ية، وتنهل من تراثها الكثير ما يشـــبع روحها، ويملأ حياتها ويمنحها القوة والشجاعة والعزم على مواصلة دربها.

صـــحيح أنّها ما زالتْ تدرس في المعهد، لكنّها تجاوزتْ المرحلة الثانية في تعلّمها اللغة وقواعدها، وبعد أســـبوع ســـتمتحنها ماموســـتا روجين في هذه المرحلة، وبعدها ستستعدُّ لتتمّة المرحلة الثالثة والأخيرة في هذا المعهد، والذي يجعلها مؤهّلةً لأن تلتحقَ بمؤسسة التعليم في قامشلو.

لم تهنأ تكوشين ذلك اليوم بنجاحها في إنهاء المرحلة الثانية من دراستها لتعليم اللغة الكـردية، فبعد عودتها من المعهد، أُصـيبتْ بحمّى مفاجئة، لقد تعرّضتْ حينها لزيادة حادة في حرارة جسدها، وأعقبتها إغماء وإعياء شديد، مما أضطرَ والدها لنقلها إسعافيا إلى المشفى، لتجتمع عليها الكوادر الطبية كافة، طلبا لتشخيص حالتها الصحية المفاجأة، وإيجاد حلّ لها، بقيت في المشفى لعدة أيام ، فقد كانت نوبات الحرارة تنتابها كل عدة ساعات، جعلتها تصاب بالشلل، فلا تقدر على تحريك قدمها الأخرى أيضا، ولم يعرف حينها الطبيب المشرف على حالتها ما مشكلتها، رغم كل الفحوصات والتحاليل التي أُجريت لها، بقيت هكذا بلا أمل، كانت الأجهزة الطبية تنبتُ في جسدها و تتسلّق أوردتها، وتعلو وجهها، وكأنها من عالم آخر، كلّ شيء فيه غريب، تسمع أصوات المواسين من حولها، يواسون والديها، وهي تزيح بوجهها عنهم، حتى لا يروا اليأس في عينيها، هل سيكتب الله لها عمرا حتى تُتمم حلمها للنهاية؟ أم سيقطع عنها الهواء ، فتصبح وحلمها كالهباء المنثور؟ كل تلك الأوهام باتتْ تراود ها كالكوابيس، لا تتوقف حتى بزوغ الفجر، وفي كل مرة تعيش ذ لك الحلم من جديد، نفق مظلم لا ينتهي، في نهايته ضوء خافت، وهي الكسيحة بلا أمل، ولكنها في هذه المرة لم تكن تسمع اسمها (جميلة) بل كان صدى اسمي الـ جديد تكوشين يأتي من بعيد، تصغي السمعَ أكثر لاسمها حتى سمعت الصدى يقول لها: تكوشين الجميلة، تكوشين الجميلة انهضي، لقد حان دورك.

وبكل ما أُتيتْ من قوة، نهضتْ وركضتْ، نعم ركضتْ، لم تكن قدمها حينها كسيحة أو مشلولة كما كانت تظنّ، بل كانتْ كغزال قد خرج توّاً من قفصه، وراحت تركض نحو نهاية النفق، كانت كعصفور دوري، يطير بين الأشجار، كادتْ أن تصلَ لنهاية النفق حتى أخرجها صوت الطبيب من سباتها

أو من غيبوبتها ليعيدَها إلى الواقع المرّ الذي ينتظرها، فهل الشـــظية التي ما زالت في نخاعها الشـــوكي ترفض الخروج، وتحاول أن تســـحب منها حيويتها وحياتها؟ وترميها مشـــلولة على طرقات الزمن؟ هل أن نهايتها باتتْ قريبة؟ وللمرة الأخيرة ستتمسّك بخيط الأمل، عساها في هذه المرة تنجو من محنتها، وتعود لعائلتها قوية ومعافاة، لقد فهم الأطباء أنه من الضروري إجراء عملية جراحية أخيرة في محاولة منهم وقف عنجهيّة هذه الشـــظية وهذه الإصـــابة، وضبط تصرفاتها ومنعها من أن تحرزَ النصرَ على جسدها، وبذلك سيوقفون حالات الشلل التي تتعرض لها كل حين، أخبرها الطبيب الجراح بذلك، اجتمعت عائلتها حولها وراحوا يزرعون بذور الأمل في روحها الجريحة، فما زال هناك أمل يا تكوشـــين الجميلة أن تعودي، ونرى ابتســـامتك تعلو وجهك الملائكي الجميل، ما زال الوقت مبكرا حتى تودعيننا، لم يســـتطع داعش وإجرامه من أخذك منا، ولكنّه اســـتطاع أن يزرع في جســـدك خنجر حقده، ســـتعودين هذه المرة أقوى مما كان، وستعيشين لتحققي حلمك من جديد.

اســـتمرّتْ العملية الجراحية مدة طويلة، كانت ترى وهي تحت التخدير آلاف الأيادي، وكأنها تطرق الأبواب من حولها، وأنها أصـــبحتْ ترى وجوه رفاق ورفيقات الســـلاح يلوّحون لها من بعيد، من بينهم الرفيقة روزالين والرفيقة فيان، تنادي عليهم وتركض نحوهم، صـــارتْ تتحدّث إليهم، وتبكي شـــوقا لهم، تباطأتْ في المســـير قليلا حين رأتْ نفســـها في حديقة جميلة جدا، تزينها الورود والأشـــجار، وراحتْ تســـتنشـــق الهواء العليل، وكأنّها تســـتنشـــقه لأول مرة بعد خروجها من ذلك الدهليز، باتَ ذلك الضـــوء يزداد أكبر وأكبر حتى صـــارتْ تغمض عينيّها من شـــدته، وأصـــبحت لا ترى شـــيئا من شـــدة الضـــياء، زال ذلك الضوء لتجد نفسها على فراش المشفى، وجهاز التنفّس على فمها وأنفها، حرّكتْ

يدها لتجد أنبوب السيروم يخرج منها وبجانبها والدتها النائمة، يميل رأسها أحيانا لليمين وأحيانا لليسار، كانت تراقبها، ولا تريد إيقاظها، شعرتْ بمدى التعب والإرهاق الظاهر عليها، تركتْها تهيمُ في ذلك العالم الوردي، وعادتْ تنسج بمخيلتها ما كانت تراه في منامها.

خرجتْ من المشفى بعد أن اطمأنّ الجميع على صحتها، ونجحتْ العملية الجراحية في وقف زحف الشلل لكامل جسدي، صحيحٌ أنّ الشلل سيبقى في قدمها اليمنى، ولكنّها وبمساعدة المعالج الفيزيائي ستعود لتعيش حياتها، وتستردّ حيويتها من جديد، لن يهزمها المرض، كما لم يهزمها داعش في العيش بحرية وكرامة في وطنها، لن يستطيعوا وقف مسيرتي النضالية للحياة، ستستمرّ في تعلُّم اللغة الكردية الجميلة، وستنجح في ذلك، وستعود مرة أخرى للحياة، ولكنها هذه المرة ستكون تكوشين الجميلة...

تمت بحمد الله

2019/3/1 سوريا - القامشلي

الفهرست

- الفصل الأول 4
- الفصل الثاني 29
- الفصل الثالث 62